

مجموعة فنون الأدب العربي

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصيدة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

صدر منها :

- في الفن الغنائي : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- في الفن القصصي : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- في الفن التمثيلي : المسرح .
- في الفن التعليمي : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- في الفن الغنائي : الزهد والتصوف .
- في الفن القصصي : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- في الفن التمثيلي : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- في الفن التعليمي : منظومات الشعر .

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٢



التراجم والسير

بقلم

محمد عبد الفنى حسن



دار المعارف

فنون الأدب العربي

الفن القصصي

٢

التراجم والسيرة

بقلم

محمد عبد الفتاح حسن

الطبعة الثالثة



دار المعارف

مقدمة

لم يكتبْ إلى اليوم - فيما نعلم - كتاب يعالج موضوع التراجم والسير في الأدب العربي . على الرغم من جلال هذا الموضوع وخطره وشدة اتصاله بتطور تدوين التاريخ الإسلامى ، من المغازى والسير ، إلى السيرة النبوية ، فكتب الطبقات التى لم تدع صاحب علم أو فن أو صناعة إلا عنت بالترجمة له . حتى كان التراث العربى فى هذا الباب أغنى وأوسع من مذكور التراث عند الغربيين .

والحق أن العرب والمسلمين قد عنوا أشد العناية بتراجم رجالهم ، وطبقات علمائهم ، وتوفروا على ذلك الفن ، وافتنوا فى تبويه وترتيبه على أنحاء سيجدها القارئ فى هذا الكتاب . حتى لقد بلغت بهم العناية والتحفى فى ذلك أن ألفوا كتباً فى تواريخ البلدان ، يؤرخون فيها لنشوتها وعمرانها وتطورها وفتحها وآثارها ، ثم يفيضون بعد ذلك فى التراجم لأهل هذا البلد . ممن ولدوا فيه أو نشأوا به أو وفدوا عليه ، وكان لنا من ذلك كتابان جليلان هما « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى ، و « تاريخ دمشق » لابن عساكر . وهما من أوسع الكتب فى التراجم الإسلامية ، حتى لقد اجتمعت فيهما حضارتا العرب فى العراق والشام . والتقت فيهما صورة رائعة من المجتمع الإسلامى الذى كان هؤلاء الرجال المترجم لهم يروحون فيه ويغدون ، ينشرون علماً ، ويبعثون حضارة ، ويصطرعون فى الآراء والأفكار ، فتكون من هذا الصراع حياة أمة بأسرها .

ولم تكن الترجمة لرجال البلدان حظ العواصم الإسلامية الكبرى وحدها ، مثل بغداد ودمشق وحلب وقرطبة وغرناطة والقاهرة وغيرها ، بل توفر كثير من كتاب التراجم على الترجمة لغير الحواضر ، فاجتمع من ذلك ما لم يجتمع لحضارة أخرى . وإذا كان بعض كتاب التراجم قد لجأوا إلى طريقة ذكر الإسناد في الروايات التاريخية فضخموا بذلك مادة كتبهم وحشدوها بما لا يتصل بسير المترجم لهم ، فإنهم من ناحية أخرى قد وكدوا لنا هذه الأخبار بسندها . كما صنع المحدثون في الحديث ، وإن كانوا قد تخلصوا بعد ذلك من عنقنة الأخبار وأسانيدها ، وذكروها مجردة . اطمئناناً إلى ما فعله المصنفون الأوائل .

وإذا كان من الحق أن نقول إن كتاب التراجم لم يعنوا بالنقد والتحليل والتعليل في ترجمة الرجال أكثر مما عنوا بسرد أخبارهم . وذكر آثارهم . ونقل بعضهم عن بعض حتى لتكاد تتشابه العبارات في مصادر الترجمة ، فإن من الحق أيضاً أن نقول إن هذه التراجم الكاثرة قد حفظت لنا كثيراً من أخبار المترجم لهم وملابس حياتهم ، مما لا يصعب معه على كاتب التراجم الحديث أن يخرج صورة واضحة للشخصية التي يريد أن يترجم لها . فهذه المادة الغزيرة من المعلومات والأخبار والحوادث الصغيرة والكبيرة ، التي حفظتها لنا كتب التراجم والطبقات في القديم ، هي المواد التي يؤلف المصور من مجموعها صورته . وهنا يختلف مصور عن مصور ، ويمتاز كاتب من كاتب . فالعبرة في « تركيب » الصورة — أو الشخصية المترجم لها — من هذه المواد المتفرقة المبعثرة .

ولم يغفل الأدب العربي كتابة « السير » وهي بعينها « التراجم » مطولة « مستقلة » ، كما في « سيرة الرسول » لابن هشام برواية ابن إسحاق ، وكما في سيرة « عمر بن عبد العزيز » لابن الجوزي ، وكما في « سيرة ابن طولون » للبلوي ، وكما في « سيرة صلاح الدين الأيوبي » لابن شداد . إلا أن السير لم تبلغ في الأدب العربي ما بلغته التراجم كثرة وتنوعاً .

ولم يقف العصر الحديث وقفة الجمود في فن له في الأدب العربي أقدم مكان ، فتأثر كتاب التراجم العربية اليوم بطرائق الغربيين ومذاهبهم في التحليل ، وتجلية العوامل النفسية والبيئية ، ودراسة عصر المترجم له دراسة يتجلى فيها مدى الاستجابة بين الرجل وظروف زمانه ، ومعارضة الروايات بعضها ببعض حتى يبدو الحق على وجهه . ورعاية الفنية الأدبية في العرض ، على أن لا يكون ذلك على حساب الحقيقة التاريخية أو الدقة في الصورة .

وراح جماعة من الأدباء المحدثين يكتبون سير الراحلين من رجال المسلمين والعرب على نهج جديد ، سندكره في موضعه من هذا الكتاب .

وبين كتب الطبقات والتراجم الأولى . والسير والتراجم في عصرنا هذا ، يمتد تاريخ مشرق حافل طويل . لبضعة عشر قرناً في هذا الفن الأدبي التاريخي الذي أرجو أن أكون وفقت في عرضه — على ضيق المجال — بما أعده من أبحاث المحاولات ، ليستدرك بها غيري ما فات . والله الموفق .

محمد عبد الغنى حسن

الفصل الأول

التراجم ونشأتها

التراجم فى القديم والحديث — التراجم بين العلم والفن —
نشأة التراجم فى الأدب العربى والداعى إليها — التراجم الذاتية .

التراجم فى القديم :

التراجم هى ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذى يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر ، تعريفًا يطول أو يقصر ، ويتعمق أو يبدو على السطح تبعاً لحالة العصر الذى كتبت فيه الترجمة . وتبعاً لثقافة المترجم — أى كاتب الترجمة — ومدى قدرته على رسم صورة كاملة واضحة دقيقة من مجموع المعارف والمعلومات التى تجمعت لديه عن المترجم له .

وكلما كانت الترجمة — فى قسمها الذاتى والغيرى — أكثر أناقة وعناية الثوب البلاغى الذى تلف فيه كانت أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ . إلا أن الإسراف فى الصورة الأدبية التى يعرضها المترجم ، والمبالغة فى الفن الأدبى والرواى الذى يضيفه المترجم على الشخصية التى يترجم لها قد يبعده كثيراً عن الحقيقة والواقع الذى يجب أن يهدف إليه ، والذى يجب أن لا يضع لاعتبار بتعلق بزخرف العبارة أكثر مما يتصل بلب الموضوع . ومما يذكر هنا على سبيل المثال فى التراجم الأوربية تراجم فروود Froude المؤرخ الإنجليزى فى القرن الماضى ، والذى كان صديقاً لكارليل ومترجم حياته . وقد بلغ من إسرافه فى الروائية أن آثاره تعد هامة فى الأدب الإنجليزى ولكنها لا يعتمد عليها من وجهة الحقيقة التاريخية .

ومهما قيل في الفرق بين الروائي والمترجم - من حيث القدرة على إظهار الرجال على حقيقتهم - ومهما كان من خلاف في الرأي بين أندريه موراو كاتب التراجم الفرنسي المعاصر . ومستر فورستر الروائي من أهل جيلنا هذا . فإن فن التراجم يحتاج إلى قدر لا بأس به من الفنية الروائية التي يظهر بها الأشخاص وكأنهم أحياء يتحركون على مسرح الحياة . ويغدون ويروحون بما يختلج في نفوسهم من نوازع الإنسان الخيرة والشريرة . التي تم بها صورة الكائن الإنساني الحي .

والترجمة للأشخاص قديمة قدم الإنسان نفسه . ولا شك أنها ظهرت مع الكتابة في الأمم التي عرفت الكتابة واستخدمتها في مسائل حياتها . أو في مسائل الترف العقلي الذي يحىء بعد استكمال الضروريات . وكثيراً ما تأتي الترجمة مع التاريخ موازية له في النشأة . لأنها في الحق نوع من التاريخ للرجال على نسق معين . فلقد كان عند الإغريق مؤرخون من طراز يذكره التاريخ بالفخر ، كما كان عندهم كتاب تراجم لا يدعون حيوات العظماء تمر من غير تسجيل لها ، أو تصويرها لأغراض ودوافع من السياسة أو الخلق أو القدوة التي يسعى لها المثاليون . فما كتب بلوتارك كتابه في « سير عظماء اليونان والرومان » إلا ليكون أمثلة واقعية للحياة التي يجب أن يكون عليها رجل السياسة ورجل الدولة ، كما وضع أرسطو كتابه « الأخلاق » ليكون تمهيداً لا بد منه لكتابه المشهور في « السياسة » . وما كتب سويتينوس كتابه في « حياة الاثنى عشر إمبراطوراً رومانياً » إلا ليكون نموذجاً لحياة هؤلاء الأباطرة السابقين في تاريخ الرومان .

إلا أن كاتب التراجم قد يكون مدفوعاً بعوامل شخصية أو صلات من القرابة والصهر ، كما فعل تاكيتوس المؤرخ الروماني مع حميه القائد الروماني أجريكولا في القرن الأول الميلادي ، فقد اجتمع للمؤرخ عاملاً الإعجاب والمصاهرة ، فكتب كتابه « حياة أجريكولا » الذي يعد نموذجاً للتراجم والسير في الأدب القديم .

وظلت أوروبا عقيماً في كتابة التراجم منذ عصور الظلام الى خيمت عليها في القرون الوسطى . على حين أخذ التاريخ الإسلامي يأخذ مكانه في الوجود ، كما أخذ الإسلام - دين العرب وغير العرب - يظهر في كل أرض استطلت بلواء الإسلام . وأخذت التراجم تظهر منذ القرن الثاني للهجرة . ثم أخذت على توالى العصور تكثر أنواعها ، ويتضح عددها . حتى بلغت من الكثرة في التراث العربي حداً لم تبلغه في أي تراث لأمة أخرى معروفة التاريخ في القديم والحديث .

وليس هذا الكلام يلقي هنا من غير تدليل ولا تمثيل . فقد ظلت إنجلترا مثلاً - على رسوخ قدمها في فن التراجم - معطلة في هذا الباب عشرات من القرون ، إلى أن ظهر صمويل بيبيس ١٦٣٣-١٧٠٣م فكتب يومياته ومذكراته التي يعدونها أول خطوة في كتابة التراجم الذاتية وما تلاها من أنواع التراجم .

وظلت فرنسا كذلك إلى أن ظهر في القرن السابع عشر أيضاً المؤرخ ريتز فكتب مذكراته سنة ١٦٧٢ .

فحين بدأ فن التراجم يظهر في إنجلترا وفرنسا بصورة ساذجة ، كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حداً من الكثرة والتنوع وسعة المجال والافتنان في موضوعات التراجم لا يقاس به بداية غير منتظمة الخطى في الآداب الأوروبية . ففي القرن الثاني عشر الميلادي كان كتاب « الاعتبار » للفارس العربي المسلم أسامة ابن منقذ ٤٨٨-٥٨٤ هـ يعد نموذجاً عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية . قبل أن يكتب بيبيس الإنجليزي وريتز الفرنسي مذكراتهما بقرون . وفي القرن نفسه كان الشاعر عمارة النيني يؤلف كتاب « النكت العصرية » ويترجم فيه لنفسه كما يترجم لغيره من الوزراء ورجال الحكم في أخريات العصر الفاطمي . وفي القرن الثالث عشر الميلادي كان كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ يسجل كسباً رائعاً في ميدان التراجم للرجال على اختلاف ألوانهم وثقافتهم . فعلى حين كان يزهي مؤرخو الآداب بكتاب بلوتارك الذي جمع فيه

ستاً وأربعين ترجمة إغريقية ورومانية ، كان كتاب ابن خالكان بفيض بقرابة ثمانمائة ترجمة جمعت إلى ضبط الوفيات الدقة في الترجمة ، مع تقديم كل ما يعين من المعلومات على تكوين صورة صحيحة للمترجم له في غير إسراف ولا تهويل .

وحين ظهرت في إنجلترا مجموعة التراجم التي تعد على أصابع اليد ، والتي كتبها إيزاك والتون في القرن السابع عشر كانت كتابة التراجم قد بلغت قممها في الآداب العربية قبل ذلك بزمان طويل ، في أخريات العصر العباسي وفي العصرين المملوكي والعثماني ، وظهرت تلك المجموعات الرائعة من كتب التراجم التي تترجم للرجال على اختلاف طبقاتهم ، وتترجم للقرون مائة فائة ، وتترجم للبلدان وأعلامها ، وتترجم لألوان من الناس تجمعهم صفة واحدة ... كتراجم العميان ، أو تراجم المسمين باسم متفق -- وتفنن في ترتيب التراجم بما ستناوله بالتفصيل فيما يلي .

والحق أن التراجم العربية الإسلامية قد فاقت -- من حيث كثرتها وتنوعها واقتنائها في ترتيب الأعلام المترجمة ، واقتنائها من حيث تبويب موضوعات التراجم ، والاهتمام بها حتى في كتب التاريخ العام وكتب الشروح اللغوية ، والترجمة لأعيان كل بلد أو كل مدينة في كتاب واحد ، والترجمة لأعلام النساء بجانب أعلام الرجال ، وتحقيق الوفيات والمواليد قدر ما سمحت به ظروف حياتهم الاجتماعية ، والاستشهاد بآثار المترجم لهم في النثر والشعر ، وضبط الأعلام وتحقيق المتشابه منها -- قد فاقت في كل ذلك غيرها من التراجم في الآداب الأجنبية الأخرى في القديم والحديث .

فما عرفنا في تاريخ التراجم العالمية عناية بضبط الأعلام كما في كتب التراجم العربية ، حتى لقد ألفت في ذلك كتب كثيرة قائمة بذاتها سنعرض لها في فصل مقبل . وإذا كان للكتابة العربية وطريقتها في القديم يد فيما طرأ على الأعلام من وهم أو اشتباه مثل أعلام الشعراء : حباب ، جناب ، خباب ، فإن كتاب التراجم لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه المشكلة الطارئة من رسم الحروف ،

فوضعوا كتباً ومعاجم للتراجم تزيل الوهم ، وتصحح الاسم ، كما صنع الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ في كتابه « المؤلف والمختلف » .

غير أن من تمام الحق في قضية التراجم بين القديم والحديث ، وبين العرب والفرنجة أن نذكر هنا مع الإعجاب ذلك المنهج السوي الذي اصطنعه الأوربيون بأخرة من الزمان في الترجمة للرجال . وقد أخذ ذلك المنهج يستقيم وتتضح معالمه منذ القرن الثامن عشر ، أو بعبارة أخرى منذ كتب جونسون كتابه « حياة الشعراء » ، ومنذ كتب بوزويل كتابه « حياة الدكتور جونسون » الذي يعده مؤرخو الآداب العالمية مفرداً في بابيه ، كما يعدونه رائعة من روائع التراجم على اختلاف العصور .

وأخذت التراجم والسير منذ القرن الثامن عشر تتأثر بالتطور العالمي الجديد في ميادين السياسة والتجارة والصناعة . فسوت الديمقراطية بين الناس حين يترجم لصغيرهم وكبيرهم ، واختفت تلك النظرة المقدسة للملوك حين يترجم لهم على أنهم وحدهم هم الناس -- أو فوق الناس ، واستحدثت أساليب جديدة في التراجم توائم روح العصر وتطوره في الكتابة والتفكير ، وساعد نمو الحاسة التاريخية على أن تكون الترجمة أو السيرة صورة صادقة للمترجم له تعتمد على أعماله وأقواله التي يكون مجموعها تاريخ حياته . وظهرت منذ ذلك الحين روائع في الترجمة ، « كسيرة جليج » لويلنجتون ، و « حياة نلسون » لسوذي ، و « حياة ولترسكوت » لوكهارت ، و « حياة شارلوت برونتي » لمسر جاسكل ، و « الملكة فكتوريا » للمؤرخ ستراتشي الذي يعد أبا التراجم في العصر الحديث ، والذي جمع في طريقته بين التفسير التاريخي واللمسة الفنية ، و « بسمارك » و « نابليون » لأميل لدفيج ، و « حياة شيلي » و « بيرون » لأندريه مورو ، وله في كتابة التراجم محاضرات ألقاها في جامعة كمبريدج سنة ١٩٢٨ م وجمعت في كتاب لا يستغنى عنه مؤرخ للتراجم والسير في العصر الحديث .

ولقد أخذت التراجم والسير العربية في القرن العشرين تنزع عنها أثواب القدم ، وتخرج عن ذلك النهج الرتيب الذي سارت عليه خلال عصور التاريخ الإسلامي ، وتجد في أساليب الترجمة في ذلك الفن متجهاً تسيّر نحوه وتتابع خطاه ، ولم تعد الترجمة نقلاً لنصوص قديمة ، وجمعاً لطائفة من المعارف في غير تبويب ولا تحليل ولا تركيب . والحق أن العبرة ليست بجمع الحقائق عن المترجم له ، ولكن المهم هو عرضها آتق عرض ، والمواءمة بينها في فن وحذق . وما أصدق سترتشي المؤرخ الإنجليزي وكاتب التراجم المشهور حين يقول : « من الواضح أن التاريخ ليس علماً ، ومن الواضح كذلك أنه ليس حشداً للحقائق . ولكنه رواية لها . إن الحقائق التي تتصل بالماضي إذا ضم بعضها إلى بعض بغير فن فإنها لا تعدو أن تكون جمعاً وتصنيفاً ، والتصانيف بغير شك قد تكون ذات نفع ، ولكنها لا تسمى تاريخاً إلا إذا استطعنا أن نسمى مواد الزبدة والبيض والبقودنس طبقاً من العجة . . ! » .

ولقد ظهر هذا التحول في كتابة التراجم في الأدب العربي الحديث في الثلث الثاني من هذا القرن ، فظهرت « العبقريات » وطائفة أخرى من التراجم للسرور عباس محمود العقاد ، وظهرت سير محمد وأبي بكر وعمر للدكتور محمد حسين هيكل ، وظهر « عثمان » و « علي وبنوه » للدكتور طه حسين ، وظهرت السيرة الصريحة الجريئة التي كتبها ميخائيل نعيمة عن حياة جبران خليل جبران ، وأخذت شخصيات التاريخ الإسلامي من الصحابة والتابعين والخلفاء والقواد والملوك والولا والعلماء والأدباء تكتب بأقلام جديدة ، تستمد حقائق التاريخ من قديم المصادر وعتيق المراجع ، ولكنها تعرضها في طبق شهي غير الطبق الذي أشار إليه المؤرخ سترتشي . . ! وتحللها على أضواء من علم النفس ، وتبين في ذكاء ووعي أثرها في البيئة التي أخرجتها وأثر البيئة فيها ، وتصور العوامل الفعالة المشتركة بين المترجم له وعصره حتى يتضح أثر كل منهما في صاحبه .

واستقام المنهج لكتّاب التراجم العربية المحدثين حتى وهم يترجمون حياة الفقهاء والأئمة من رجال الدين ، فلم تعد الترجمة للإمام الشافعي مثلاً سرداً لأقوال العلماء والرواة فيه . أو حشداً لمجموعة من أخباره أو رصفاً لطائفة من أقواله وآرائه ، ولكنها صارت دراسة لبيئة الإمام . وفقهاً لمذهبه . وتصويراً لحياته من خلال الأخبار المروية عنه . وتحليلاً للظروف التي أحاطت به مولداً ونشأة وتعليماً . ومدى أثرها في تقويم شخصيته ، وكسب خبراته ، ونشر مذهبه . وظفر فن التراجم العربية في هذا السبيل بطائفة طيبة من تراجم الأئمة للأساتذة الشيخ محمد أبو زهرة^(١) ، وعبد الحليم الجندى . وأمين الخولي .

وقد فطن كتاب التراجم اليوم إلى أنه ليس من الضروري أن تكون حياة المترجم له مأساة حزينة المبدأ أو الختام حتى تكون الترجمة قطعة من الفن الجميل . وعلى الرغم مما قاله أسكار وايلد من أن حياة نابليون بونابارت قد تكون حياة عادية خالية من الجمال لولم تختم بهذا الختام الحزن في سانت هيلين . وعلى الرغم من مأساة الحياة المضطربة العائرة التي عاشها أسكار وايلد فإن المترجم البارع الصانع قد يخلق بفنه الأدبي من الحياة العادية ترجمة رائعة لأناس لم تهزهم مآسي الحياة .

وفي التراجم والسير العربية كانت حياة الشهيد علي بن أبي طالب والشهيد الحسين عليهما السلام مثاراً لتراجم رائعة في الأدب الشيعي قديماً ، وعند طه حسين ، والعقاد . وعبد الفتاح عبد المقصود في العصر الحديث ، ولكن هؤلاء لم يحتاجوا إلى مأس حزينه ومصارع باكية ليترجموا لغير الشهيد من أمثال أبي بكر وعمر وخالد بن الوليد .

(١) للشيخ محمد أبو زهرة كتب في تراجم « مالك » « ابن حنبل » « الشافعي » « أبو حنيفة » « ابن تيمية » « ابن حزم » . وللاستاذ عبد الحليم الجندى ترجمة طيبة لأبي حنيفة . وللاستاذ أمين الخولي ترجمة تحليلية للإمام مالك .

والحق - مرة أخرى - أن حياة العظماء وحدهم ليست جديرة بأن تثير اهتمام كتاب التراجم والسير أكثر من اهتمامهم بالعاديين من الناس ، وقد غيرت النظرة الديمقراطية من هذا الرأي ، وأصبح نصيب الرجل المواطن المكافح من الترجمة أوفى من نصيب الملوك والحكام في العصور الوسطى . ولقد سبق كتاب التراجم المسلمون غيرهم في هذا الباب ، فترجموا للملوك كما ترجموا للسوقة على حد سواء .. وترجموا للمبصرين كما ترجموا للعميان^(١) - كما فعل الصفدي المتوفى ٧٦٤ هـ - وترجموا للكرماء كما ترجموا للبخلاء - كما فعل الحافظ أبو بكر الخطيب ..

ومهما صغرت حياة المترجم لهم أو كبرت . فإن الترجمة لا بد أن تأخذ حقها من التحقيق العلمي والبحث ومعارضة الأحوال والأقوال بعضها ببعض . حتى يتميز الزائف من الصحيح . كما يجب أن تؤخذ أقوال الرواة بعين الاعتبار والوزن لما قد يكون فيها من ميل للمترجم له أو هوى معه أو تعصب عليه . فإن الناس لا تتفق آراؤهم في شخص معين ، كما أن تقديراتهم قد تختلف لاعتبار أو لآخر .

ففي الترجمة للحجاج بن يوسف الثقفي يجب أن نكون على حذر مما يقوله خصومه في الرأي ، فإن الخصومة قد تحمل على سوء الرأي في الرجال . لقد حكم بعض المؤرخين على الحجاج بالكفر - وهي تهمة شنيعة - مع أن الرجل كان - على قسوته البالغة في سفك الدماء - مؤمناً بالله وبرسوله أشد الإيمان . وحكم عليه الخليفة الصالح الزاهد عمر بن عبد العزيز بالنفاق فيما روى عنه أنه قال « لو جاءت كل أمة بمنافقيها وجئنا بالحجاج لفضلناهم ! »

وفي الترجمة للإمام أبي حنيفة النعمان يجب أن يتفطن المترجم أو المؤرخ إلى ما شنع به عليه خصومه وحساده لعصبية فيهم . أو لخلاف بين أصحاب الرأي

(١) من كتب التراجم الجيدة المعاصرة للمكفوفين كتاب « في عالم المكفوفين » للأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي . وفيه تراجم لجماعة من أبناء النور من أهل عصرنا من أمثال الشيخ أحمد الزين ، والشيخ الصاوي شعلان ، ومحمد العلائي .

وأصحاب الحديث . وقد كان أبو حنيفة من كبار رجال الرأي في التشريع الإسلامي ، فلم يعجب ذلك أصحاب الحديث فقالوا فيه ما قالوا مما يجب أن يكون منه المترجم على حذر . ولقد ساق الخطيب البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » كثيراً من الأقوال التي قيلت في الذيل من أبي حنيفة . ولكن المؤرخين والحفاظ وأصحاب السير لم يسكتوا أمام هذه الأقاويل ، فكشفوا عن قيمتها ومبالغتها من الصحة كما صنع الحافظ ابن عبد البر ، والإمام المؤرخ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » ، والسيد مرتضى الزبيدي في « الجواهر المنيفة » .

وما أعجب تضارب الأقوال في الرجل الواحد وفي ناحية معينة منه بالذات . مما يجب أن لا يخفى على الباحث العلمي المحقق في فن التراجم . فإن كاتب التراجم الإنجليزي « فرود » قد صور لنا - في ترجمته الفاتنة لكارليل - زوجته « جين » بصورة امرأة غير مفهومة من زوجها ، سيئة الحظ ، رقيقة العشرة ، مرغمة على أن ترضى أنانية زوجها لمظهر مجده أمام المعجبات به من النساء . . . على حين أن كاتبة التراجم « مس درو » قد صورت امرأة كارليل في كتاب لها بصورة الثرثرة ، السليطة ، اللجوج . الكثيرة الخصام ، السطحية التفكير . وصورت كارليل بصورة الزوج المخلص في الزوجية ، الخلو الطباع !

الحق أن اختلاف الرأي في الناس والأشياء لا يزال في القديم والحديث . ولا يزال في الشرق والغرب ، ولا يزال حين نترجم للأخبار والأشعار . وما أوجبنا حين نؤرخ للرجال ونكتب سيرهم أن نكون على جانب الاعتدال والحذر والنصفة . فلا نميل إلى هؤلاء . ولا إلى هؤلاء .

نشأة التراجم في الأدب العربي

تعد السيرة النبوية أوسع ما في التراجم الإسلامية ، وأقدمها ظهوراً ، وأولها وأولاًها باهتمام المؤرخين والكتاب ، فقد كانت المحور الذي تدور حوله حياة الإسلام ونشأته واتساعه وتطوره وانتشاره بالغزوات والفتوح . وسنعالج السيرة النبوية في باب مستقل نظراً لمكانتها ومكانة صاحبها من نفوس العرب والمسلمين ، ونظراً للمكان الذي نزلته في التاريخ والأدب ، بحثاً فيها وشرحاً لها ولأشعارها . وتعليقاً عليها ، وتلخيصاً لها أو توسعاً فيها على مدى العصور إلى زماننا هذا .

ونشأت بجانب العناية بكتابة السيرة عناية كبرى بتدوين الحديث الذي لم يدون في عصر الرسول خشية أن يختلط شيء منه بالقرآن فلا يعرف أحدهما من صاحبه . وقد كان تدوين الحديث عاملاً فعالاً في خدمة كثير من العلوم التي ظهرت بجانبه لتخدم رسالته ، وكان من هذه العلوم المساعدة علم التاريخ ، فاتجهوا إلى الغزوات والفتوح وتواريخ الصحابة والوقائع بين على ومعاوية ، يسجلون أخبارها في رسائل متفرقة كانت هي النواة الأولى لكتابة التاريخ الإسلامي المطول فيما بعد .

وقد بلغ من عنايتهم بالحديث النبوي أنهم اتجهوا إلى الكلام في رواته ورجاله . فترجموا لهم تراجم وجيزة لم يكن القصد منها إلا بيان قيمة الحديث ومكانته من الإسناد ، وجرهم ذلك إلى وضع كتب في نقد الرجال الحديثين ووزنهم بموازين دقيقة تجعلهم جديرين بحمل أمانة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فوضعوا كتباً في « الجرح والتعديل » ، فمن كان في الميزان عدلاً فهو من المعدلين ، ومن كان مجرحاً انتقل التجريح منه إلى أحاديثه المجرحة . وهكذا خدمت هذه الكتب في رجال الحديث فن التراجم ، ونهت الأذهان إلى أن توضع تراجم أخرى لطبقات من الرجال تتفق في لون واحد من العلم أو الفن أو الصناعة ، كطبقات

الصحابة ، وطبقات المفسرين ، وطبقات الشعراء ، وطبقات النحاة وغيرهم . مما سنعرض له بالتفصيل في فصل مقبل .

ومن أقدم الكتب في هذا كتاب « تاريخ البخارى » المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وقد جعله في ثلاثة كتب : كبير مرتب على الحروف ، وأوسط مرتب على السنين ، وصغير . وهو بالطبع غير كتابه « الصحيح » الذي جمع فيه طائفة من أحاديث الرسول تزيد على سبعة آلاف حديث كما ذكر المؤرخ ابن حجر .

وفي هذا العصر نفسه اشتغل عالم مسلم آخر بجمع طائفة من التراجم الإسلامية في كتاب أسماه « الطبقات » . وقد كان ابن سعد صاحب كتاب « الطبقات » المتوفى ٢٣٠ هـ مصاحباً وكتائباً للواقدي المؤرخ المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . فاستفاد منه في كتابة التاريخ . إلا أنه خالفه في المنهج ، فالواقدي يؤلف في « المغازي » وفي « فتوح الشام » وغيرها من الفتوح الإسلامية ، وابن سعد يؤلف في طبقات الصحابة والتابعين كتاباً ضخماً يعد من أقدم المصادر وأوثقها في تاريخ الإسلام والمسلمين . إلا أنه يكتب في السيرة النبوية وفي المغازي جزعين من كتابه ، على حين يجعل بقية الكتاب وقفاً على تراجم البدرين من الصحابة ، وتراجم الأنصار والمهاجرين ممن لم يشهدوا بدرأ ، وتراجم أهل مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين والكوفيين والبصريين .

ولم يغفل ابن سعد تراجم النساء الصحابيات فجعل لهن جزءاً من طبقاته . على أن العناية بالناحية الدينية وناحية رواية الحديث ، والصحبة للنبي عليه السلام والتبعية لصحابته لم تمنع قوماً آخرين من المؤرخين وكتاب الطبقات من الاشتغال بتراجم لغير الصحابة ولغير الحديثين ، فقد رأينا محمد بن سلام الحمصي المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، والذي كان معاصراً للبخارى وابن سعد ، يترجم لطائفة من شعراء الجاهلية والإسلام في كتابه المشهور « طبقات الشعراء » ، وقد جمع فيه بين أخبار عن الشعراء وبين مختارات من أشعارهم .

ولقد تأثر مؤلفو هذه الطبقات والتراجم بطريقة المحدثين في رواية الأحاديث . فهم لا يذكرون الخبر مجرداً ، وإنما يسندونه إلى رواته قائلين : حدثنا فلان عن فلان . كما كان يصنع أصحاب الحديث . فهم متأثرون بهم في الإسناد إلى حد كبير . ولقد يزيد الإسناد وتعدد الأسماء فيه على الخبر نفسه . ولو أن أغلب كتب الطبقات هذه جردت من أسانيدھا وأسماء رواھا لبلغت أقل من نصف الكتاب الأصلي بكثير . وإليك هذا الخبر من كتاب « طبقات الشعراء » : (أخبرنا أبو خليفة ، أخبرنا ابن سلام . حدثني ابن جعدبة وأبو اليقظان ، عن جويرية بن أسماء قال : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد ، فاحتفلت قريش في جنازة كثير ، ولم يوجد لعكرمة من يحمله) . وإذا كان في هذا الخبر دليل على كثرة الإسناد من ناحية ، ففيه من ناحية أخرى دليل على اهتمام الناس بالشعراء واحتفالهم بهم أحياء وأمواتاً ! وأعل هذا مما بعث ابن سلام على أن يؤلف كتاباً في طبقات الشعراء على حين كان معاصروه يهتمون بطبقات الصحابة والمحدثين .

وأخذت كتب التراجم والطبقات بعد ذلك تكثر وتنوع ، ويقوم بها المؤلفون بوحى من أنفسهم واستجابة لدواعي العلم . لا تقرباً إلى وال ، ولا نزاهة إلى أمير ، ولا إجابة لرغبة راغب . أو طلب طالب ، كما حدث في العصور التالية وخاصة حين كثرت الدويلات . والممالك الإسلامية . فاضطر العلماء والمؤلفون إلى الوقوف بأبواب الأمراء يتلقون إشاراتهم بتدوين مؤلف معين في موضوع معين . وقد كثرت ذلك في العصرين الأيوبي والمملوكي . على أننا نجد في العصور المتقدمة من كتاب التراجم والطبقات من استجاب لرغبة الخليفة نفسه . كما صنع أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ في كتابه « طبقات النحويين واللغويين » . فقد ذكر في مقدمته أن الخليفة الحكم المستنصر بالله الأندلسي أمره بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام ثم من تلاهم من

بعد إلى هلم جرأ ، إلى زمانه . وأن يطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبيهم في العلم ومراتبهم ، وأن يذكر - مع ذلك - موالدهم وأسنانهم ومدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك ، مع ذكر نتف من أخبارهم وفضائلهم ليكون ذلك شكراً لحميل سعيهم ، وحميد مقامهم . كما نجد في العصور المتأخرة مؤرخاً مترجماً كابن تغرى بردى المصرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ . يشير في مقدمة كتابه الضخم في التراجم المسمى « المنهل الصافي » إلى أنه ألف كتابه هذا « غير مستدعي إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان . ولا مطالب به من الأصدقاء والحلان . ولا مكلف لتأليفه وترصينه من أمير ولا سلطان » . فهو استجابة ذاتية داخلية من الرجل ليكمل به كتاب « الوافي بالوفيات » لمؤلفه الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ . ونرى بعد ذلك في القرن الحادى عشر الهجرى مؤرخاً مترجماً كابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ يذكر في مقدمة كتابه المشهور في التراجم « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » أنه جمعه لنفسه تذكرة لمن تذكر ، وعبرة لمن تأمل وتبصر . وكذلك فعل ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ حين جعل كتابه « وفيات الأعيان » تذكرة لنفسه .

وقد أراد ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » . المتوفى سنة ٦٢٦ هـ أن يؤكد لنا في مقدمة معجمه النفيس في تراجم العلماء والأدباء والنحاة والشعراء أنه جمع هذا الكتاب « لفرط الشغف والغرام ، والوجد بما حوى والهيام ، لا لسلطان أجتديه ، ولا لصدر أرتجيه » . فكأنه هنا يعرض من طرف خفى بأبى بكر الزبيدي الذى صرح ياقوت بإفادته من كتابه ونقل فوائده إلى معجمه .

ولعل ياقوتاً الحموى كان يرد رداً غير مباشر على الذين عابوا كتابة تراجم للشعراء والأدباء والنحاة واللغويين بدلا من الترجمة للمفسرين والمحدثين ، ذلك حين ذكر في مقدمة معجمه « أنه أخبار قوم عنهم أخذ علم القرآن المجيد . والحديث المفيد ، وبصناعتهم تبال الإمامة ، وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان

والوزارة، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » . وقد أخذ يدلل على أهمية التراجم للنحاة واللغويين لما في علم اللغة والنحو من معرفة القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهيهما « فإن العلم إنما هو باللسان ، فإذا كان اللسان معوجاً فتنى يستقيم ما هو به ؟ » وقد فطن المؤرخ المترجم ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ إلى ضرورة الاختلاف في الترجمة لطبقات الرجال لا فرق بين فقيه ومحدث وعالم وأديب فقال : « رأيت المحدثين تختلف مقاصدهم فمنهم من يقتصر على ذكر الابتداء ، ومنهم من يقتصر على ذكر الملوك والخلفاء ، وأهل الأثر يؤثرون ذكر العلماء، والزهاد يحبون أحاديث الصالحاء، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء . ومعلوم أن الكل مطلوب ، والمحدوف من ذلك مرغوب » .

التراجم الذاتية أو الشخصية

الترجمة الذاتية هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه ، فيسجل حوادثه وأخباره ، ويسرد أعماله وآثاره . ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث تعظم وتضؤل تبعاً لأهميته ، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالباً . وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإغلاء قيمتها . ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثره انطباقاً على حياته . لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض ، ولكنها مجال تحقيق وثبت . وبهذا يصح في المترجم الذاتي مضرب المثل : قطعت جهيزة قول كل خطيب .

وما أصدق الدكتور جونسون — الأديب الإنجليزي المشهور — حين يقول : « إن حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه » . ولكن هل يستطيع إنسان أن يكتب عن نفسه ما لا يود أن يراه الناس منه ويعرفوه عنه ؟ وهل يستطيع إنسان أن يبدى نفسه للناس على سجيته وفي مبادله من غير أن يحاول ترميم العيوب التي لا يحب أن يطلع غيره عليها ؟

وهل تستطيع الترجمة الذاتية مثلاً أن تسعفنا بما نود استحضاره من ذكريات الطفولة والمراهقة ؟ وإذا كان النسيان غير المقصود يفوت علينا — حين نترجم حياة أنفسنا — ذكريات ماض بعيد ، فإن هناك نسياناً مقصوداً متعمداً حين يمنعنا الحجل والاستحياء من ذكر صغائر في حياتنا قد لا تشرف الصفحة التي نريدها ناصعة البياض .

ولكن هناك من أصحاب التراجم الذاتية الغربيين من لم يتورعوا أن يذكروا نقط ضعفهم ما دام الضعف البشري مفروضاً في الإنسان خير القادر على التمام .

ولعل العرب كانوا أحرص الناس على حيواتهم الخاصة حين انصرفوا عن التراجم الذاتية لأنفسهم ، ولعل أصحاب الخطر والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة قد عدلوا عن الترجمة لأنفسهم ما دام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك عنهم . ولعل من خلق العربى وسمات نفسيته أن لا يتحدث عن نفسه بقوله : أنا أو عن عمله بقوله : عملت .

وعجيب جداً أن يجوز للشاعر في معرض الفخر أن يقول : أنا . أو نحن ، ولا يجوز للكاتب أن يجلس ليقص علينا طرفاً من حياته وسيرته .

وعجيب جداً أن يفتن المسلمون في كتابة التاريخ والسير ، فلم يدعوا لوناً من ألوان التاريخ والتراجم إلا عالجوه على كثرة . ولكنهم لم يفكروا في المذكرات واليوميات الشخصية إلا على حال من الندرة ، ولم يفكروا في التراجم الذاتية إلا على حال من القلة القليلة التي لا تتكافأ مع هذا الفيض الزاخر من التراجم والسير .

أما المذكرات واليوميات فأطرف ما عندنا منها مذكرات الأمير العربى أسامة ابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ التي أودعها كتابه « الاعتبار » فهي تصور لنا سيرته وأعماله وفروسيته ، كما تصور لنا طائفة من صور المجتمع الإسلامى في عصر الأيوبيين . وأقدم ما وصل إلينا من المذكرات هو ما كتبه الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة والمتوفى سنة ٤٨٣ هـ تحت عنوان « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى في غرناطة » . وهي تصور أحداث يوسف ابن تاشفين المرابطى بالأندلس .

وأما التراجم الذاتية فمن أقدم من نعرف ممن عالجوها الشاعر عمارة اليمى الذى كان موالياً للفاطميين في أخريات دولتهم في القرن السادس الهجرى ، فقد تحدث عن نفسه في كتابه « النكت العصرية » .

على أن « سيرة المؤيد داعى الدعاة » بقلمه هي أسبق عهداً مما ترجم به الشاعر

عمارة اليمى لنفسه ، وترجع إلى منتصف القرن الخامس ، وتصور لنا حياة داعية من دعاة الفاطميين وأنصار المذهب الإسماعيلى . وقد ظلت هذه السيرة الذاتية مغفلة الإشارة إليها في كتب التراجم والتاريخ ، ولعل لقيام المذهب الإسماعيلى نفسه على التقية والستر أثراً في اختفاء هذه الترجمة الحافلة بكثير من الفوائد التاريخية . إلى أن أتيت لها أن تظهر من عهد غير بعيد .

على أن ابن سينا الفيلسوف المتوفى سنة ٤٢٨ هـ قد ترجم لنفسه ترجمة اعتمد عليها تلميذه الجوزجاني حين ترجم له . ومن ترجم لنفسه من رجال الأمة العربية الإسلامية العماد الأصهباني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ في تصديره لكتابه « البرق الشامى » . والسيوطى المؤرخ المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه « حسن المحاضرة » ، والسخاوى المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » ، ولسان الدين ابن الخطيب مؤرخ الأندلس المتوفى سنة ٧٧٦ هـ في كتابه « الإحاطة في تاريخ غرناطة » وكتابه الآخر : « نفاضة الجراب » الذى يعد مذكرات شخصية لابن الخطيب أثناء فترة نفيه في بلاد المغرب ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ في كتابه « التعريف » الذى ذكر فيه رحلاته شرقاً وغرباً ومراسلاته وقصائده وما عاناه في أسفاره . والمقرئ المؤرخ الأندلسى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ في الجزء الأول من كتابه « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » حيث وصف رحلته من الأندلس إلى المشرق .

ويسوقنا ذكر رحلتى ابن خلدون والمقرئ إلى ذكر جماعة من الرحالين العرب . لم يترجموا لأنفسهم تراجم ذاتية مستقلة . ولكنهم ذكروا في خلال أسفارهم وتجوالم وما لاقوه في خلالها من الأحداث ما يصح أن ينهض بجزء كبير من الترجمة لحيواتهم . كما فعل ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ هـ في رحلتهما .

ولقد مضت القرون متعاقبة بعد ذلك وليس في الأدب العربى ترجمة ذاتية

فما نعلم ، إلا ما كان من ترجمة على (باشا) مبارك لنفسه في كتابه « الخطط التوفيقية » وقد نشرت بعد هذا مستقلة بعناية الدكتور محمد دري الحكيم من رجال القرن الماضي ، ومن مشهورى الأطباء في مصر ، والسيرة التي كتبها محمد عمر التونسي في كتابه « تشحيد الأذهان ، بسيرة بلاد العرب والسودان » والسيرة التي كتبها عبد الله النديم لنفسه في كتابه « كان ويكون » ؛ حتى جاء القرن العشرون من تاريخ المسيح ، فرأينا المرحوم الأستاذ محمد كرد علي يكتب لنفسه ترجمة في بضع عشرة صفحة في آخر كتابه « خطط الشام » المطبوع في دمشق سنة ١٩٢٧ م ، وقد كان الرجل فيها صريحاً كعادته ، وكما سمعناه منه في مصر مرات حين كانت كلمة الحق منه تغضب سامعيه . وقد تحدث عن مزاجه العصبي الدموي ، وعن تألمه للظلم ، وكرهته للفوضى ، وانقباض نفسه من غشيان المجالس الغاصة ، بل تحدث عن فقر والده ويتمه حين اضطرت له ضرورات الحياة أن يشتغل في صناعة الخياطة أول أمره .

ولعل الأجزاء الأربعة الضخام من « المذكرات » التي طبعها سنة ١٩٤٨ م تعد أطول وأطرف ما وعاه الأدب العربي من مذكرات في القديم والحديث . ولقد جمعت من الآراء والهجوم على كثير من الشخصيات العربية ما أثار سخط نفر من رجال العروبة ، إلا أن فيها من صدق الرجل وجرأته وحسن نيته وعلو أسلوبه وحسن بيانه ما لا يجوز لمؤرخ الأدب الحديث إغفاله .

أما المذكرات التي نشرها المؤرخ أحمد شفيق ، والأمير عمر طوسون ، وقليني فهمي ، وإسماعيل صدقي ، والدكتور محمد بهي الدين بركات ، فتعد لونا من التراجم الذاتية في المكتبة العربية الحديثة ، وإن كانت تشتمل على كثير من النواحي السياسية التي عاصرها هؤلاء الرجال .

ولن يفوتنا في ختام هذا الفصل أن نشير إلى حفنة من كتب التراجم الذاتية كتبها أدباء وشعراء وأطباء من أهل عصرنا ، ومنها « الأيام » لطف حسين ،

و « حياتي » لأحمد أمين ، و « قصة حياة » لإبراهيم عبد القادر المازني ، و « سبعون » في أجزائه الثلاثة الضخام لميخائيل نعيمة ، و « أنا » لعباس محمود العقاد ، و « قال الراوي » للشاعر المهجري إلياس فرحات . و « حياة طبيب » للدكتور العالمي نجيب محفوظ ، و « قصة حياتي » للدكتور مصطفى الديواني طبيب الأطفال المشهور . و « مذكرات طالب بعثة » التي كتبها الدكتور لويس عوض في محاولة للكتابة باللغة العامية .

ولن نختم هذا الفصل عن التراجم الذاتية في الأدب العربي دون الإشارة إلى مقال جيد في هذا الموضوع كتبه المستشرق الألماني كارل بروكلمان سنة ١٩٥٢ م ونشر في كتاب « المنتقى من دراسات المستشرقين » الذي نشره الدكتور صلاح الدين المنجد سنة ١٩٥٥ . وعنوان المقال أو البحث : « ما صنف علماء العرب في أحوال أنفسهم » . وإذا كان بروكلمان قد وفي الموضوع حقه فيما يتصل بالمؤلفين القدامى . فإنه لم يذكر من المحدثين إلا محمد كرد علي في مذكراته ، وطه حسين في أيامه . على أنه قد جدد من التراجم الذاتية بعد بحث بروكلمان ما حرصنا على أن نذكره فيما سبق من سطور .

ومن البحوث في التراجم الذاتية في الأدب العربي ما كتبه المستشرق فرانتز روزنتال بعنوان (التراجم الذاتية للمؤلفين العرب) وهو بحث نشر في مجلة Orientalia سنة ١٩٣٥ م ، ونشر ملخصاً في كتاب « الموت والعبقريّة » الذي أصدره عبد الرحمن بدوي سنة ١٩٤٥ م .

على أن الإنصاف يقتضي أن نشير في هذا المقام إلى ثبت طبيب واف صنعه الأستاذ أنور الجندى عن « التراجم الذاتية في الأدب العربي المعاصر » ونشرته مجلة « الأديب » البيروتية في الجزء الخامس الذي صدر في شهر مايو سنة ١٩٦٨ ، وكان هذا البحث جواباً عن سؤال من الأستاذ هارولد فونك .

كان يروى الأخبار بطريق الإسناد على نحو ما كان يفعل أصحاب الحديث وكتاب الطبقات في القرنين الثاني والثالث .

وفي القرن الخامس الهجري شهدت الفتوحات الإسلامية غازياً في سبيل الله من طراز طال عهد المسلمين به منذ أيام الفاتحين الأولين . ذلك الفاتح هو السلطان محمود الغزنوي الذي نشر راية الإسلام في الهند وما جاورها ، وقد ألقت الأقدار لكاتب منشئ راسخ القدم والمكانة في البيان العربي — هو أبو النصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ — أن يتصل بالأمراء الغزنويين ، وأن يشهد عن كتب جلائل الأعمال والفتوح التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، فألف كتاباً أسماه « اليميني » نسبة إلى يمين الدولة — وهو لقب السلطان محمود — وبسط فيه ترجمة حياته وترجمة أبيه السلطان سبكتكين ، وأودع فيه من المعارف التاريخية ما لا غنى عنه لمؤرخ يهتم بذلك العصر ، وكتبه مسجوعاً على نحو ما فعل الثعالبي في كتابه « بتيمة الدهر » .

وقد لقيت هذه السيرة للسلطان الغزنوي من القبول في البلاد الإسلامية ما جعل الأدباء يتسابقون إلى شرحها ، كما صنع الشيخ أحمد المنيني الدمشقي المتوفى سنة ١١٧٢ هـ في كتابه المسمى « الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي » . وليس هذا هو الشرح الوحيد لهذه السيرة ، فقد شرحها جماعة منهم الكرماني ، والخوارزمي ، وابن محفوظ ، وحמיד الدين .

أما القرن السادس الهجري فقد حظي بطائفة من السير كتبها المؤرخ المترجم ابن الجوزي لجماعة من عظماء الأمة الإسلامية ، فقد كتب سيرة للخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أفاض فيها ، وذكر كثيراً من أخباره وفضائله وأوليائه وإدارته المملكة الإسلامية وتدوينه الدواوين ، وجرى في الأخبار على طريقة الإسناد . ولا تقل سيرته للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز عن سيرته للخليفة الثاني . وقد قابل ابن الجوزي هاتين السيرتين لعلمين من أعلام الخلفاء المسلمين بسيرته

الفصل الثاني

السير — السيرة النبوية — السيرة الشعرية

السير :

ما الفرق بين الترجمة والسيرة ؟ ليس في الفروق اللغوية ما يبين الفرق بينهما على وجه التحديد . إلا أن الاصطلاح والاستعمال عما صاحبا الفتوى في هذا ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطول نفس الكاتب فيها ، فإذا ما طال النفس واتسعت الترجمة سميت سيرة .

وأول ما استعملت لفظة السيرة في سيرة الرسول التي سنتناولها عما قليل ، وسمى المؤلفون فيها بأصحاب السير ، إلا أن ذلك لم يمنع مؤلفاً في أواخر القرن الثالث الهجري هو أحمد بن يوسف بن الداية — الكاتب المصري — أن يؤلف كتاباً في « سيرة أحمد بن طولون » . ولعل هذه هي أول مرة ينتقل فيها استعمال لفظة « السيرة » من سيرة النبي إلى سيرة غيره من الرجال . وفي أوائل القرن الرابع الهجري ، وبعد كتاب ابن الداية بزمان وجيز ، ظهر كاتب مؤرخ اسمه عبد الله البلوي فلم تعجبه « سيرة ابن طولون » كما ألفها سلفه أحمد بن يوسف الذي « كان يمر في شرح قصة ثم يرجع إلى ما هو قبلها ، وأنه كان يخلط أخباره . . . وما هكذا أرخ الناس الأخبار . ولا عليه نظم العلماء الآثار . . . » فكتب « سيرة ابن طولون » على المذهب الذي رآه صالحاً لسير الرجال . وله طريقة في تحليل الحوادث وتعليقها والتعليق عليها وإبداء شعوره الخاص نحوها ، إلا أنه

لإمام من أئمة المسلمين المجمع على فضلهم ومناقبهم وتفقههم في الدين ، هو الإمام أحمد بن حنبل . فقد أرخ أعماله ومحتته في فتنه القول بخلق القرآن ، وفقهه وأصحابه ومريديه . وجرى في ذلك على طريقة الإسناد أيضاً كما صنع في سيرته للعمرين .

أما السيرة التي كتبها الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ للإمام الشافعي ومناقبه فلعلها مقابل ما صنعه ابن الجوزي مع الإمام ابن حنبل . وهي سير تدل في مجموعها على روح ذلك القرن واتجاه مؤرخيه نحو التماس المثل الرفيعة في سياسة الحكم ، وفي فقه الدين ، عند عظماء الراحلين من المسلمين .

ولقد اختفت في القرن السابع والثامن والتاسع ظاهرة السير للأموات السالفين وحلت محلها سير الأحياء من الملوك وأصحاب السلطان ومؤسسي الدولات ، كما ظهرت بجانبها سير العلماء المعاصرين . ففرى ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ يكتب سيرة لصالح الدين الأيوبي عنوانها « النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية » ، ونرى محمد بن أحمد النسوي المؤرخ المتوفى سنة ٦٣٩ هـ يكتب « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي » من ملوك الدولة الخوارزمية ، ونرى ابن عرشاه المتوفى سنة ٨٤٥ هـ يكتب « عجائب المقدور في أخبار تيمور » ، وهو سيرة لتيمورلنك ملك التتار . مسجوع العبارة ككتاب « اليمينى » الذى سبقته الإشارة إليه . ونرى ابن الشهيد الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٤ هـ يكتب « الدر الثمين في سيرة نور الدين » ، ونرى القاضى الأديب محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ يكتب سيرة السلطان خليل بن قلاوون في كتابه « الألفاظ الحفية » ، من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » ، ونرى غير هؤلاء عشرات من السير أغلبها للملوك والسلطين كما سلف القول ، وقليل منها في سير العلماء والصوفية مثل كتاب ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ في سيرة السيد البدوي والسيد عبد القادر الجيلاني . وكتاب السخاوي المؤرخ المتوفى سنة ٩٠٢ هـ في ترجمة شيخه وأستاذه ابن حجر . وكتاني السيوطي في مناقب الإمام مالك والإمام أبي حنيفة .

ولسنا هنا الآن بسبيل حصر هذه الكثرة الكاثرة من كتب السير ، ولكنها في مجموعها لا تخرج عن النهج القديم المطروق من ذكر الأخبار والمناقب مصحوبة بأساندها ، حتى لتشتبه الكتب المؤلفة في سيرة واحدة ، لأنها تأخذ جميعاً من معين واحد ومن رواة بعينهم تتفق ألفاظهم وتنقل كما هي ، إلا ما يحدث من تزيد بعض الروايات أو تنقصها على هوى الناقلين .

السيرة النبوية

كانت سيرة النبي عليه السلام — أول ما دونت — باباً من أبواب الحديث النبوي الذى جمعه رجال الحديث ورتبوه على أبواب مستقلة ، فكنت تجد في الصحاح من حديث رسول الله كتاباً في « الجهاد والسير » أو كتاباً في « المغازي » بجانب كتب الفقه الأخرى وأبوابه .

ولقد ظهر بجانب رجال الحديث مؤرخون للسيرة النبوية نصوا عزائمهم على جمع أخبارها ورواية أحداثها . وهؤلاء المؤرخون كانوا بالطبع من رجال الحديث ورواته ، إلا أن اهتمامهم بأمر السيرة النبوية جعل لهم نوعاً من التفرد في هذا الميدان .

ولم تستأثر بلدة إسلامية واحدة بإخراج مؤرخين لسيرة الرسول . فقد اشترك في ذلك العمل طائفة من المدن الإسلامية الكبرى في آخريات القرن الأول الهجري والقرن الثاني . ففرى من مؤرخي السيرة في المدينة أبان بن عثمان المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وعروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٢ هـ ، وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣ هـ . وعبد الله بن حزم المتوفى سنة ١٣٥ هـ ، وعاصم بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠ هـ . وموسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ ، ومحمد بن إسحاق المتوفى سنة ١٥٢ هـ ، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ونرى من مؤرخي السيرة المكيين ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ . كما نرى من البصريين معمر بن راشد . ومحمد بن سعد

صاحب الطبقات ، وابن هشام صاحب كتاب « السيرة النبوية » المتوفى سنة ٢١٨ هـ . ومن الكوفيين زياداً البكائي المتوفى سنة ١٨٣ هـ . كما نرى البين ممثلة في كتابة السيرة النبوية وجمعها على يد وهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ . وقد انتهت إلينا سيرة الرسول في كتاب عبد الملك بن هشام الذي انتهت إليه السيرة التي كتبها ابن إسحاق ، والتي لا يعرف الآن شيء عنها أكثر من أنها نهاية ما وقف عليه ابن هشام تلميذ ابن إسحاق من سيرة الرسول . وهي وإن كانت تعرف بسيرة ابن هشام إلا أن فضل راويها محمد بن إسحاق لا ينكر ، فلولا روايته ومشيخته لابن هشام ما انتهت إلينا السيرة النبوية بهذا الشكل الذي يعد أقدم مصدر معتمد عليه في تاريخ حياة الرسول .

ونلاحظ في كتاب السيرة النبوية ومؤرخيها الأولين أن أغلبهم كان من أهل مدينة الرسول ، وقد أتاح لهم قربهم من عاصمة الإسلام — بعد مكة — أن يرووا الأحداث كما سمعوها من أقرب الناس إليها ، وأن تنقل عنهم هذه الأخبار — على طريق الإسناد كما في رواية الحديث — في الأمصار .

وقد اضطر بعض مؤرخي السيرة أن يسقطوا الأسانيد مراعاة للاختصار من ناحية ، ووصلاً لسلسلة الحوادث من ناحية أخرى كما فعل ابن إسحاق والواقدي . ولكنهم تعرضوا لنقد الناقدين من رجال الحديث وتجرى بهم . ولم يسلم ابن إسحاق من هذه الحملات العنيفة ، وإن كان دافع عنه بعض المؤرخين وردوا على الطعون الموجهة إليه . كما نرى في كتاب « عيون الأثر » لابن سيد الناس البعمرى وهو من مؤرخي الأندلس ومؤلفي السيرة في القرن الثامن الهجرى .

والحق أن ابن إسحاق كان — على سعة علمه واتساع روايته — لا يتقيد بالقيود التي وضعها رجال الحديث . ومن هنا وجدوا سبيلاً في الطعن عليه . وقد كان يجمع بعض أخباره من الكتب المدونة في ذلك العهد البعيد مع أن رجال الحديث يشترطون السماع . إلا أنه كان صادقاً غير مطعون عليه في هذه الناحية

وكان حرصه على كثرة الجمع قد شغله عن تنخل ما يجمعه وتحقيقه ، وخاصة فيما لا يحسنه من أبواب العلم والأدب — كالشعر مثلاً — فقد كان يقبل كل شعر يقال متصلاً بحوادث السيرة النبوية ولو كان موضوعاً . ويقول عنه ابن النديم صاحب كتاب « الفهرست » : « إنه كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أن يدخلها في كتابه فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر » .

والحق أن تلميذه ومدون سيرته : ابن هشام ، كان أكثر منه بصراً وحذراً . فإنه كان أميناً في الرواية عن أستاذه ، إلا أنه يعلق على الأشعار المروية قائلاً : « هذا ما صح لى من هذه القصيدة ، وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها » أو يعلق على أبيات لأبي قيس بن الأسلت الأنصارى بأنها « تروى أيضاً لأمية ابن أبي الصلت » .

ولم يكتف ابن هشام مؤرخ السيرة النبوية بهذه النظرة الناقدة إلى الشعر المروى فيها مما فات أستاذه ابن إسحاق أن يحققه ، بل كثيراً ما نراه يقف — بعد رواية أستاذه — فيصحح لفظاً وقع في عبارة ابن إسحاق ، أو يشرح كلمة غامضة ، أو يذكر رواية أخرى مخالفة للأصل ، أو يذكر شاهداً على استعمال لغوى . بل أباح لنفسه أن يسقط من أصل السيرة ما لا يراه مناسباً في مثل هذا الكتاب الجليل ، فيقول مثلاً : « تركنا هنا كلاماً لأنه أفحش فيه » .

وتظهر عدالة المؤرخ واستواء الميزان عند ابن هشام في موقفه من الشعر الهجائي المقذع الذي يحذفه من أصل السيرة . فهو يحذف المفحش من هجاء شعراء المسلمين كما يحذف المفحش من هجاء شعراء المشركين على حد سواء ، لا يحابي ، ولا يتعصب ، ولا يميل . لأنه راض نفسه أن يقف موقف المؤرخ الناقد ، لا المؤرخ المتعصب المتحيز .

هذه هي « سيرة الرسول » كما دونها المؤرخ ابن هشام رواية عن شيخه ابن

إسحاق ، الذى انتهى إليه علم المغازى والسير فى منتصف القرن الثانى من الهجرة . وقد أخذ مؤرخو المسلمين بعد ذلك وعلى تتابع العصور الإسلامية يكتبون فى السيرة النبوية والشمالىة المحمدية . ويملكون من نواحى الرسول ما يجد فيه المسلمون الأسوة الحسنة والقودة الطيبة . ويفيضون فى التأريخ للسيرة وصاحبها من نواح عدة ، فمنهم من يفيض الحديث فى غزواته ، ومنهم من يطيل القول فى شمائله ، ومنهم من يتحدث عن أولاده وحفدته ، ومنهم من يتخذ من أخلاقه مثلاً كاملاً للإنسان الكامل . ومنهم من يجعل من السيرة النبوية محوراً تدور حوله أحداث التاريخ الإسلامى وأعمال رجاله وصانعيه الأولين .

على أن من المؤرخين من أفرد سيرة الرسول بكتاب خاص قائم بذاته . كما صنع القاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ فى كتابه « الشفا فى تعريف حقوق المصطفى » . وكما صنع ابن سيد الناس اليعمرى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ فى كتابه « عيون الأثر فى فنون المغازى والشمالىة والسير » ، وكما صنع المؤرخ مغلطاي المتوفى سنة ٧٦٢ هـ فى كتابه « الزهر الباسم » فى سيرة أبى القاسم » . وكما فعل المؤرخ المقرئى فى كتابه « إمتاع الأسماع » الذى ذكر فيه وقائع من حياة الرسول عليه السلام لا نجد لها فى كتاب غيره . وكما صنع شهاب الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ فى كتابه « المواهب اللدنية » فى المنح المحمدية » ، وكما صنع نور الدين الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ فى كتابه « إنسان العيون » فى سيرة الأمين المأمون » وهو المعروف بالسيرة الحلبية . فرقا لها من سيرة ابن هشام . وكما صنع المرحوم الشيخ محمد الحضرى من أهل زماننا هذا فى كتابه « نور اليقين » فى سيرة سيد المرسلين ^(١) .

(١) من الإنصاف هنا أن نشير إلى كتابين حديثين فى ترجمة الرسول وحياته سلكا طريق البحث والتحقيق ومعارضة الروايات ، والتعمق فى دراسة الأحداث والمغازى ، وهما « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل ، و« محمد » للمرحوم الأستاذ محمد رضا . وهناك « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، وهو إحياء للسيرة النبوية على طريقة أدبية حية نابضة ، تصور الأحداث والرجال فى حركة ، مع رشاقة فى التصوير والتعبير .

ومن المؤرخين من جعل سيرة الرسول قسماً من كتابه فى التاريخ العام كما فعل الطبرى المؤرخ المتوفى سنة ٣١٠ هـ . وابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ فى كتابه « الكامل » . والذهبي المؤرخ الحافظ الناقد المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى كتابه الواسع « تاريخ الإسلام » . وابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فى كتابه الضخم « البداية والنهاية » . والديار بكري المتوفى سنة ٩٨٢ هـ فى كتابه « الخميس » فى أحوال أنفس نفيس » . فهؤلاء - وغيرهم ممن لسنا بسبيل حصرهم - قد ترجموا للرسول عليه السلام وأرخوا للسيرة النبوية بما يكون كتباً قائمة بذاتها فى السيرة . فابن كثير - مثلاً - يخصص أكثر من جزءين من كتابه الضخم فى سيرة الرسول . وابن الأثير يخصص أكثر من جزء كبير من كتابه لسيرة الرسول .

وكثيراً ما تتشابه أخبار السيرة النبوية فى هذه الكتب وتكاد تتفق ألفاظها ورواياتها لأنها تمتع جميعاً من معين واحد . وإذا كانت « سيرة ابن هشام » هى الأصل فإن ذلك لم يمنع أن يلجأ المؤرخون للسيرة إلى مصادر أخرى غير سيرة ابن هشام . وكثيراً ما نرى فى الطبرى أخباراً برواية ابن إسحاق مؤرخ السيرة ، وإن كانت هذه الأخبار لم ترد فى « سيرة ابن هشام » . لأن هذه قد اختصرت كثيراً من روايات ابن إسحاق وهذبها كما سلف القول .

وقد ظفرت السيرة النبوية بطائفة من التلخيصات والتذييلات والشروح ستحدث عنها فى موضع خاص بذلك من هذا الكتاب . غير أن ذلك لن يعجلنا هنا عن الإشارة إلى ما صنعه أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي المتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ فى كتابه « الروض الأنف » فى تفسير سيرة ابن هشام ، حتى ليعد هذا الكتاب شرحاً وافياً . وإكمالاً لما يذكره ابن هشام فى سيرته التى تعد أقدم أثر فى تاريخ الرسول الكريم .

وقد تناول بعض الكتاب المعاصرين جوانب من سيرة الرسول آثروها بالعرض

والتحليل والإبراز الواضح ، كما صنع المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه «عبقريّة محمد» ، وكما صنع الأستاذ المؤرخ محمد جميل بيهم في كتابه « فلسفة تاريخ محمد » ، والأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى في كتابه « محمد رسول الحرية » .
والأستاذ محمد شوكت التوفى في كتابه « محمد في طفولته وصباه » . والأستاذ محمد عزت دروزة في كتابه « عصر النبي وبيئته قبل البعثة » . والأستاذ محمد فرج في كتابه « محمد المحارب » ، ومحمد أحمد جاد المولى في كتابه « محمد المثل الكامل » ، الأستاذ أمين دويدار في كتابه « صور من حياة الرسول » .

وقد أثرت هذه الكتب المكتبة العربية الحديثة بما قدمته من نواح من حياة الرسول لم يكن يمر عليها المؤلفون إلا في إشارات سريعة ، وعبارات خاطفة ، فأصبحت اليوم موضعاً للدراسة المنفردة المستأنية العميقة .

وإذا كانت سيرة النبي عليه السلام مجالاً للبحث والدراسة عند المسلمين والعرب منذ القديم ، فإنها صارت عند المستشرقين ميداناً لعدد من الدراسات التي تأصلت واشتهرت وترجم بعضها إلى العربية . ومن هذه الدراسات ما كتبه السير ويليام موير عن حياة محمد ، وما كتبه كارليل . ومارجوليوث ، ودرمنجهم^(١) ، وسبرنجر — بالاشتراك مع نولدكه . وفنسك عن محمد واليهود وموقف الرسول من يهود المدينة ، وفلهاوزن . وبارثلميو سانت هياير عن محمد والقرآن ، ودينيه مشتركاً مع^(٢) سليمان بن إبراهيم الجزائري ، وديمومين ، وجابرييلي ، وآندراى عن حياة محمد وعقيدته ، وواشنجتون إرفنج^(٣) ، وبودلى^(٤) .

(١) ترجمه عادل زعيتر وصدر عن مكتبة عيسى الحلبي .

(٢) ترجمه الدكتور عبد الحليم محمود وزميله وصدر عن دار المعارف بمصر .

(٣) ترجمه الدكتور على حسنى الحروبلى وصدر عن دار المعارف بمصر .

(٤) ترجمه عبد الحميد جودة السحار وصدر عن مكتبة مصر .

السيرة الشعرية

لعل الشعر أراد أن يثبت أنه قادر على أن يلج الميادين التي كانت للنثر ، أو لعل الشعراء — أو ناظمي الشعر من المؤرخين — أرادوا للشعر أن يكون سبيلاً متأنقاً لكتابة التاريخ . فلجأوا إلى تدوين بعض السير عن طريق الكلام المنظوم الذي يقيد الوزن والقافية معاً كما في القصائد التاريخية ، أو يقيد الوزن فقط مع تنوع القافية ، كما في الأراجيز التاريخية .

ولقد عرفنا بعض كتاب التراجم الذين تأنقوا في الكتابة بنثر مسجوع . كما فعل أبو النصر العتبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ في كتابه « اليميني » في سيرة السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى . وكما فعل الثعالبي في « يتيمة الدهر » ، وكما فعل ابن خاقان في كتابه « قلائد العقيان » الذي ترجم فيه لطائفة من أعيان معاصريه في الأندلس . ولكن يظهر أن المؤرخين الشعراء لم يرضوا بالنثر وسيلة لغرضهم من الترجمة والسير . فاستخدموا الشعر في ذلك الباب ، وهي حركة كانت استجابة لحركة الشعر التعليمي الذي بدأ يدخل كل ميدان من ميادين العلوم . ولعل أقدم تاريخ منظوم هو ما صنعه عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ في قصيدته التاريخية في أشعار الخلفاء والملوك . وفي أرجوزته في تاريخ الخليفة المعتضد العباسي التي صنعها بإشارة من المعتضد نفسه . وقد أعجب بها الخليفة وحفظها إحدى جواريه ، فكانت تنشده إياها في أكثر أوقاته .

والحق أن المعتضد لم يطلب من الشاعر ابن المعتز أكثر من تأليف كتاب في سيرته وترجمة حياته . فوجد الشاعر في الشعر ما يغنيه عن التأليف بالنثر ، وأنجز سيرة الخليفة المعتضد في أرجوزة طويلة ، ضمت تاريخ هذا الخليفة المصلح الحازم الذي غطى على نفوذ الأتراك في قصر الخلافة ، وكان له من الإصلاحات الكثيرة ما يذكرها له التاريخ .

ولقد وجد الشاعر الرقيق مطاوعة عجيبة من الشعر في التعبير عن أغراضه ،

وفي الإمام بنواحي صاحب السيرة في شعر رقيق لطيف ، كقوليه في وصف قصر الرباب الذي بناه المعتضد سنة ٢٨٧ هـ :

فمن رأى مثل « الرباب » قصراً كم حكمة فيه تخال سحراً
والنهر والبستان والبحيرة قد جمع الماء إليها طيره
وللبزاة معها وقائع فغائص في جوفها وواقع
وبعضها يذبح في الأكف مأسورة قد رُميت بحتف
وما رأى الرءون مثل الشجرة ذات غصون مورقات مشرة
وكقوليه في قضاء المعتضد على اللصوصية التي كانت منتشرة في الموصل في ذلك العهد :

سار إلى الموصل ينوي أمراً فلا البر معاً والبحرا
وكبس اللصوص والأفسرادا وأمن البلاد والعبادا
وجزعت من خوفه الفراعنة^(١) وأصبحت سفن التجار آمنة
وكان في دجلة ألف ماخر لم يعبها إلا جناح طائر
يجبون كل مقبل ومدبر مجاهرين بالفعال المنكر
كم تاجر راوغهم بزورقه فأغمدوا سيوفهم في مفرقه
وفرت الأعراب في البلاد وأهلكوا إهلاك قوم عاد
فأودعوا السجن مكتفين مغفلين ومصندين

فهذه الصورة الشعرية للصوص وأعمالهم وكبس رجال الخليفة فم قد أحسن الشعر عنها التعبير بما لا يقل أداء وضبطاً للمعنى عن النثر .

وأخذت بعد ابن المعتز تتوالى السير الشعرية سواء أكانت ترجمة للرسول عليه السلام أم ترجمة للملوك والحكام وأعيان الرجال .

أما السيرة الشعرية للرسول فقد تصدى للقيام بها جماعة من المؤرخين الشعراء . كما فعل شمس الدين الباعوني المتوفى سنة ٨٧١ هـ في كتابه المسمى « منحة اللبيب ، في سيرة الحبيب » ، وكما فعل زين الدين بن الشحنة المؤرخ المتوفى

(١) يدل هذا الاستعمال في التعبير والجبروت على قدم دلالة لفظ « فرعون » على المستبد المتجبر .

سنة ٨١٥ هـ في أرجوزته في سيرة الرسول ، وتبلغ عدة أبياتها تسعة وتسعين بيتاً ، وكما فعل ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ في كتابه « بشرى اللبيب ، في ذكرى الحبيب » . وإن كانت في الحق أقرب إلى شعر المديح منها إلى شعر السير .

أما السير الشعرية لغير النبي عليه السلام فقد كتب فيها جماعة من مؤرخي العصر المملوكي . وأشهرهم الأديب الكاتب المؤرخ محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ في كتابه « سيرة السلطان الملك الظاهر بيبرس » ؛ وبهاء الدين الباعوني المتوفى سنة ٩١٠ هـ في كتابه « القول السديد الأطراف » . في سيرة السعيد الملك الأشرف « وهي أرجوزة تقع في أكثر من خمسمائة بيت . وتشتمل على سيرة السلطان برسبای إلى قايتباي ؛ وبدر الدين العيني المؤرخ وصاحب كتاب « عقد الجمان » المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، وقد نظم سيرة الملك المؤيد السلطان المملوكي في كتاب يعرف « بالجوهر » . ويظهر أنه لم يقتنع بهذه السيرة الشعرية ، فألف كتاباً آخر منشوراً في سيرة ذلك السلطان أسماه « السيف المهند » . في سيرة المؤيد .

وإذا كنا نعجب من طريقة بعض الكتاب المتصنعين في عصور متأخرة من حل الأبيات الشعرية وتحويلها إلى منشور ، فإذا بلغ بنا العجب إذا عرفنا أن سيرة المؤرخ ابن عبد الظاهر — التي سبقت الإشارة إليها والتي نظمها مؤلفها بالشعر — قد أحالها إلى لغة نثرية شافع العسقلاني المتوفى سنة ٧٣٠ هـ في كتاب أسماه : « المناقب السرية » ، المنتزعة من السيرة الظاهرية .

والحق أن هذه السير لم تكن في مجموعها غير نوع من التقرب ، والزلفي ، والمدائح للمؤرخة سيرتهم ، ولم يكن فيها من مناهج الترجمة وكتابة السير ما يضيف إلى العلم أو التاريخ حقيقة جديدة . أو يجلو لبساً ، أو يحقق مسألة . غير أن الطرق اختلفت بهم فيمن يتقربون إليه . ويلتمسون الزلفي عنده ، أو الشفاعة لديه . فأصحاب سيرة الرسول الشعرية يكتبونها على طريق التقرب إلى رسول الله ، والتمين بسيرته ، والاصطناع لديه . وأصحاب سير الملوك والحكام يبتغون بها الجاه ، ويلتمسون بها الزلفي . ويتوقعون منها عرض الدنيا . ولكل وجهة هو موليها . . .

الإشارة إلى ثلاثة منها تعد من أمهات الكتب في هذا الموضوع .
وأول هذه الكتب كتاب « نزهة الألباء » ، في طبقات الأدباء » لكمال الدين
الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ . وأغلب الظن أنه أول كتاب في التراجم العامة بعد أن
كانت كتب التراجم نكتب في نوع خاص من الرجال . فللمحدثين طبقاتهم ،
وللشعراء طبقاتهم ، وللنحاة واللغويين طبقاتهم . وللقضاة طبقاتهم كما سيجي .

وعلى الرغم من صغر حجم كتاب « نزهة الألباء » ووجازة الترجمة للأعلام
المرجم لهم فإنه جزيل النفع ، لأنه جمع فيه كثيراً من تراجم المتقدمين والمتأخرين
إلى عصره ، وقد رتب فيه التراجم حسب سني الوفاة لا حسب ترتيب الأعلام
وفق حروف الهجاء . وقد غلبت نزعة الأنباري في اللغة والنحو والأدب فظهر
ذلك في إكثاره من تراجم اللغويين والنحاة والأدباء ، وقل أن تجد فيه ترجمة
لغير هؤلاء إلا إذا كان لهم هنالك مائة إلى اللغة والأدب .

أما ثاني الكتب في التراجم العامة فهو كتاب « معجم الأدباء » أو « إرشاد
الأريب إلى معرفة الأديب » الذي ألفه ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
وقد توسع الرجل في طبقات المترجم لهم وفي القدر الذي ترجم به لكل منهم فجمع
فيه ما وقع له من أخبار النحويين . واللغويين ، والنسابين ، والقراء ، والإخباريين
والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة ،
وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً . أو جمع
فيه تأليفاً .

ومن هذا يتضح أنه لم يترك مشغلاً بالعلم والأدب والكتابة والوراقة والخط
إلا ترجم له ، ونظمه في سلك معجمه الضخم . ولعل اهتمامه بتراجم الوراقين يرجع
إلى حنينه لتقديم حرفته . فقد كان الرجل في أول أمره يشتغل بنسخ الكتب بالأجر
وجعل بيع الكتب تجارته . وحصلت له من ذلك فوائد كثيرة ظهرت في كتابه
العظيمين : « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » الذي نتحدث الآن عنه .
وكان في نية ياقوت أن يأخذ نفسه بالمنهج الذي رسمه في مقدمته ، وهو الإيجاز

الفصل الثالث

أنواع كتب التراجم

التراجم العامة الجامعة — التراجم حسب العصور — التراجم لسنة سنة —
التراجم في كتب التاريخ العام — كتب الطبقات — : « طبقات الصحابة .
والفقهاء والقراء ، والحفاظ . والمحدثين ، والنحاة ، والشعراء . والصوفية .
والقضاة ، والأطباء ، والفلاسفة » — تواريخ البلدان وتراجم رجالها .

التراجم العامة الجامعة

نقصد بالتراجم العامة تلك الكتب التي تجمع طائفة من التراجم لطائفة من
الرجال يختلفون صناعة وطبقة وعصراً ومكاناً . ولكنهم يتحدون في صفة واحدة
تجمعهم وهي صفة الجدارة والاستحقاق بأن يترجم لهم . وفي هذا
النوع من كتب التراجم يجتمع الفقيه والمحدث والشاعر والأديب والحكيم والقاضي
وغيرهم بين دفتي كتاب واحد . على الرغم من الفروق الكثيرة بين مهتهم ورسالتهم
في الحياة . كما يجتمع رجل من رجال القرن الأول بجانب رجل من رجال القرن
الثاني أو الخامس أو ما بعدهما . كما يجتمع المكي والمدني والشامي والعراقي والمصري
والخراساني والأندلسي ، بغض النظر عن اختلاف أوطانهم .

ويعد هذا النوع من كتب التراجم معجماً للرجال البارزين في كل علم وفن
في مجموعة من العصور ، يرتبون بحسب سني وفياتهم . أو بحسب أسمائهم
كما سنوضحه في موضع آخر .

وفي الأدب العربي طائفة من هذا النوع من كتب التراجم لا مندوحة من

في التراجم . ولكنه لم يجد بداً من الإفاضة والتطويل في بعض الأعلام إلى حد يجعل من تراجمهم كتباً مستقلة بذاتها ، كما في ترجمته لإبراهيم بن العباس الصولي في أكثر من سبعين صفحة . وترجمته لابن هلال الصابي في قرابة ذلك القدر . وترجمته لأبي العلاء المعري في أكثر من مائة وعشر صفحات . وترجمته لأسامة بن منقذ في قرابة ستين صفحة .

ومن ناحية أخرى نراه يوجز في بعض التراجم إنجازاً لا يكاد يشق غلة . ولا يسد حاجة . ولا يجيب سألة . كترجمته للخلال الأديب في أربعة أسطر ، وترجمته لابن رضوان النحوى في سطر واحد وأقل من نصف السطر !

ولقد حمل هذا الاختلال في الميزان بعض الأدباء على أن يستظهِروا من ذلك أن هذه التراجم الوجيزة ليست من صلب الكتاب ولكنها مدسوسة عليه . لأن مخطوطات معجم الأدباء لم تصل إلينا كاملة وقد نادى بهذا الرأي ^(١) الأستاذ محمد كرد علي . ولكن قد يقال في الرد عليه أن هذا الإنجاز الخلل لم يكن في الأجزاء الأخيرة من الكتاب كما قال الأستاذ ، ولكنه يبدو في الفصول الأولى من الكتاب ، وهي الفصول التي لا يتطرق الشك في أن الاقتصار المخذى قد أدركها . كما قد يقال أيضاً إن ياقوتاً كتب كتابه الضخم على فترات متباعدة . وفي سنوات كثيرة فأنساه بعد الفترات وطول الزمن ما قد ألزم به نفسه في مقدمة معجمه . وكانت في ياقوت طبيعة المؤرخ المحقق حين يترجم للرجال ، فهو يتثبت . ويعارض رواية برواية ويرجح بين الاثنين ، ويسأل المترجم فلم عن تواريخ ميلادهم ، ويستخبر غيرهم عن تواريخ وفياتهم . كما فعل في ترجمته لأحمد الفرغاني حين يقول : (وكانت وفاته — كما أخبرني المصريون بها — في سنة اثنتى عشرة وسبعمائة . عند كوفى بها) . وسنعرض لشيء من ذلك عند الحديث عن تحقيق الوفيات والموايد .

وكان ياقوت في منهجه في التراجم لمعاصريه — ولن سبقوه أيضاً — مثال

(١) كنوز الأجداد : لمحمد كرد علي ص ٣٢٤ .

المؤرخ العفيف الذي يمر مر الكرام على ضعف الناس ومبازلهم وخواص شئونهم كما يوصي « تروبولد » . وما عرف عنه أنه وقع على عيب لرجل أو حاول إظهاره ، فإذا ما اضطر إلى ذلك ذكره بصيغة البناء للمجهول . كما صنع في ترجمته لمعاصره الشاعر ابن عنين ، فقد قال عنه : « ويقال إنه يخل بالصلاة ، ويصل ابنة العنقود . ورماه أبو الفتوح بن الحاجب بالزندقة . والله أعلم بصحة ذلك » . كما كان مثال المقدر لمعاصريه الذاكر فضلهم في إشادة بذكرهم ، وبعد عن تنقصهم . فيقول عن معاصره نجم الدين العقيلي إنه « أحد شعراء العصر المجيدين . وأدبائه المبرزين » . ولا يذكر معاصراً إلا قرنه بوصفه أنه من أفاضل العصر . أو أحد أفراد العصر الأعلام . أو غير ذلك مما لا نجده مثلاً فيما وقع بين المؤرخين السيوطي والسخاوي من رجال القرن التاسع الهجري .

ويمتاز ياقوت بأنه وضع في مقدمة كتابه منهجاً لتراجم الرجال من حيث الترجمة لطبقات كثيرة ، ومن حيث العناية بمواليد الرجال ووفياتهم ما وجد إلى ذلك سبيلاً . ومن حيث ترتيب الأعلام في معجمه على طريقة حروف الهجاء مع التزام ذلك في أول حرف من الاسم وثانيه وثالثه ورابعه . فأدم عنده مقدم على إبراهيم ، فإذا تساوى الاسمان الأولان رجع إلى أسماء الآباء فالتزم فيها ترتيب الحروف وهكذا . ومن حيث الترجمة للرجال « على اختلاف البلدان . وتفاوت الأزمان ، حسب ما اقتضاه الترتيب . وحكم بوضعه التبويب » ، ومن حيث حذف الأسانيد التي كثيراً ما كانت تثقل كتب التاريخ والتراجم « إلا ما قل رجاله ، وقرب مثاله » .

ولقد نجح ياقوت في التزام هذا المنهج إلا ما كان من إطالته في بعض التراجم وإيجازه الشديد في بعضها كما سبق القول .

أما الكتاب الثالث من كتب التراجم العامة فهو كتاب « وفيات الأعيان » الذي ألفه المؤرخ الشهير قاضي القضاة أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، ولقد كان معاصراً لياقوت أو على الأصح أدرك ثمانية عشر عاماً من حياته ،

لأنه ولد سنة ٦٠٨ هـ ، وترجم حياته في كتابه وختم الترجمة الطويلة بقوله : « وكان الناس عقيب موته يشنون عليه . ويذكرون فضله وأدبه ، ولم يقدر لى الاجتماع به » .

فالمؤرخان العظيمان لم يتلاقيا . وإن كانا قد التقيا فى فن واحد هو فن التراجم العامة الجامعة ، ولا يزال كتاباهما من المراجع الهامة الموثقة فى تواريخ الرجال إلى القرن السابع الهجرى . ولقد رسم ابن خلكان منهجه بإيجاز فى مقدمة تاريخه الجليل ، فهو يرتب التراجم وفق أسماء المترجم لهم ، بدلا من ترتيبها حسب السنين كما هو الشأن فى كتب التاريخ الإسلامى العام ، وقد اختار طريقة الترتيب الهجائى حتى يكون الكتاب أسهل تناولا ، وإن كان هذا يفضى إلى تأخير المتقدم وتقدّم المتأخر فى العصر ، وإلى إدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ، فقد يقع شاعر بجانب مفسر . أو نحوى بجوار طبيب ، ولكنه أثر ذلك لما فيه من المصلحة المقتضية .

وعلى الرغم مما لاحظته ابن خلكان من مراعاة التسهيل فى ترتيب الأعلام تسهيلات للرجوع إليها . فإنه قد استحدث صعوبة لو كان فطن إليها لكان قد عمل على تلافئها ما دام القصد هو سهولة التناول ، فإنه قد رتب الأعلام على حسب أسماء أصحابها لا على حسب ما اشتهروا به . فأبو تمام فى حرف الحاء لأن اسمه « حبيب » ، وأبو فراس الحمدانى الشاعر فى حرف الحاء لأن اسمه « الحارث » ، والسيرافى النحوى المشهور فى حرف الحاء لأن اسمه « الحسن » ، وهكذا فى أكثر الأعلام ، وهذا يقتضى من القارئ معرفة تامة بأسماء المترجم لهم ، لا بأسماء شهرتهم ، وإلا لاقى عناء فى التهدى إلى الأعلام .

ومن مناهج ابن خلكان فى كتابه أنه لم يقصره على طائفة مخصوصة كالعلماء وحدهم ، أو النحاة وحدهم ، أو الوزراء وحدهم ، « بل كل من له شهرة بين الناس ، ويقع السؤال عنه ذكرته . وأثبت من أحواله بما وقفت عليه مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب » .

وقد اهتم ابن خلكان بوفيات المترجم لهم فأثبتها ، وذكر موالدهم إن قدر عليها . وبالغ فى ضبط الأعلام والأسماء فتقيدها أو قيد منها ما لا يؤمن التصحيف فيه . فيقول مثلا فى ضبط بلدة ميسان بأسفل مدينة البصرة : « وميسان بفتح الميم . وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح السين المهملة ، وبعد الألف نون » . وليس بعد هذا التقييد الشديد فى الضبط مجال لتحريف أو تصحيف كما وقع فى كثير من كتب المؤرخين السابقين .

وقد أعلن ابن خلكان منهجه فى التحقيق قائلا : « إني بذلت الجهد فى التقاطه من مظان الصحة . ولم أتساهل فى نقله ممن لا يوثق به ، بل تحررت فيه حسبا وصلت القدرة إليه » . وفحوى هذا الكلام الوجيز الدقيق أن ابن خلكان بذل الجهد فى الرجوع إلى المظان الصحيحة ليأخذ عنها تراجم الرجال وأخبارهم . وأنه تحاشى المصادر غير الموثوق بها . ولم يتساهل فى هذه الناحية ، وأنه قصد وجه التحرى فى كتابة التراجم كما أسعفته قدرته ، وساعدته مسنته .

ولقد ضاع — فيما ضاع من تراث الإسلام — كثير من المراجع التى رجع إليها ابن خلكان واستمد منها مادة تراجمه . ومن هنا يعد كتابه « وفيات الأعيان » — فوق قيمته فى التراجم — وعاء لكثير من الكتب التى أضاعها الزمان ، وبعثتها يد الحدثان .

أما مراجعته الحية المعاصرة له فكانت فى جماعة كثيرة من الرجال الذين لقيهم وأخذ عنهم ، ويعبر عن ذلك بقوله فى مقدمته : « وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده فى كتاب » . وهذا حق . وإلا فمن كان يستطيع غير ابن خلكان أن يروى لنا تلك النادرة الطريفة عن الشاعرة الشامية تقيّة بنت أبى الفرج؟ قال ابن خلكان : « وحكى لى الحافظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ، رحمه الله ، أن تقيّة المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى . وكانت القصيدة خميرية ، ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بالخمير . فلما وقف عليها قال : الشيخة تعرف

هذه الأحوال من زمن صباها ؟ ! فبلغها ذلك . فنظمت قصيدة أخرى حربية .
ووصفت الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف . ثم سیرت إليه تقول : علمى بهذا
كعلمى بهذا . . . وكان قصدها براءة ساحتها مما نسبها إليه ! »

هذا هو ابن خلكان الذى ذكر المستشرق نيكلسون فى كتابه « تاريخ
الأدب العربى » أنه أول مسلم ألف كتاباً فى التراجم القومية العامة . وقد دفع
تعصب نيكلسون لابن خلكان وإعجابه به أن يقول هذا ناسياً ياقوت الرومى من
قبله . وناسياً الأنبارى صاحب « نزهة الألباء » من قبل . والحق أن فضلها
لا يحدد . وإن كان ابن خلكان أوفى على الغاية حين جمع فى تاريخه أكثر
من ثمانمائة ترجمة . ولولا صنيعه هذا لجهل تاريخ كثير من أعلام
المسلمين .

وقد ذهب المستشرق الأستاذ « جب » مذهب نيكلسون . فذكر فى « دائرة
المعارف الإسلامية » أن ابن خلكان ابتدع التأليف فى التراجم الشاملة بنوعها
العام . والحق أننا لا ندرى سبباً قوياً يحملها على هذا رأى . فإذا لم تكن
تراجم ابن الأنبارى وياقوت الحموى للنحويين ، واللغويين ، والنسائين . والقراء
والإخباريين ، والمؤرخين ، والوراقين ، والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل ،
وأرباب الخطوط ، والمؤلفين والمصنفين — من باب التراجم العامة : فأين تكون
إذن عمومية التراجم ؟

الحق أن ابن خلكان ترجم فى كتابه لهذه الطوائف من الناس : وزاد عليها
« كل من له شهرة بين الناس » كما قال فى مقدمته . فهو لم يبتدع هذا النوع
من التراجم العامة ، ولكنه جاء فوجده ممثلاً فى الأنبارى وياقوت : فزاد عليه
وتوسع فيه .

ولقد لقي ابن خلكان — أو لقي تاريخ ابن خلكان — ما يستحقه من التقدير
والوزن عند العرب والعجم ، وعند الشرقيين والغربيين على السواء . فترجم إلى
الفارسية فى القرن التاسع الهجرى ، وترجم إلى التركية سنة ١٢٨٠ هـ ، وترجمه

المستشرق الفرنسى دى سلان إلى الفرنسية^(١) فى القرن الماضى ، وقام جماعة من
العلماء على تولى العصور بتذييله . أو اختصاره . أو نقده ، كما سنشير إلى
ذلك فى فصل تال .

التراجم حسب العصور

إن فكرة كتابة التراجم حسب العصور — أو القرون — قد سبق بها الثعالبى
المتوفى سنة ٤٢٩ هـ حين ترجم فى كتابه المشهور « يتيمة الدهر » لأعلام الشعراء فى
القرن الرابع ، وظلت فكرة التراجم حسب القرون محتجبة فى القرنين الخامس
والسادس إلى أن جاء المؤرخ علم الدين البرزائى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ فألف كتابه :
« مختصر المائة السابعة » فى تراجم أعيان ذلك القرن ، فكان بذلك أول مؤرخ
للتراجم العامة وفق القرون . وفى ذلك القرن نفسه جاء الأدفوى مؤرخ التراجم
المصرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فألف كتابه « البدر السافر . وتحفة المسافر » فى تراجم
أعلام القرن السابع الهجرى . ولا يزال هذان الكتابان مخطوطين فى بعض مكتبات أوروبا .

ويتميز القرن الثامن الهجرى بأنه أول قرن بلغنا فيه مؤلف طويل فى تراجم
أعيانه . فكان بذلك أول كتاب لدينا فى الترجمة للرجال على حسب العصور .
ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة المؤرخ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة
٨٥٢ هـ ، ويحمل عنوان كتابه الدلالة على تراجم ذلك القرن : « الدرر الكامنة ،
فى أعيان المائة الثامنة » . وقد طبع سنة ١٩٢٩ م فى الهند فى أربعة أجزاء كبار .
ولم يهمل ابن حجر فى كتابه الترجمة لأعلام النساء فى القرن الثامن ، وقد
كانت المرأة المسلمة دائماً فى حسابه وهو يؤرخ ، فترجم لها محدثة وراوية وعابدة ،
وقدامتلاً كتابه بمئات من تراجم النساء ، وهو فى هذا على الضد من المؤرخ
ابن خلكان الذى كانت المرأة المسلمة قلة نادرة فى كتابه « وفيات الأعيان » .

(١) ذكر جورجى زيدان فى طبعة سنة ١٩٣١ من « تاريخ آداب اللغة العربية » أن
دى سلان ترجم « وفيات الأعيان » إلى الإنجليزية ، والصواب أنه ترجمه إلى الفرنسية .

ويمتاز كتاب « الدرر الكامنة » بترجمته لمملوك التتر وأمراء المغول وسلاطين الأتراك . مما يجعله مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامى فى القرن الثامن . على أن ابن حجر — وقد ترجم لرجال المغول والتتر — قد فاته أن يترجم لرجال الهند لبعد ديارها عنه . فقام السيد عبد الحى الحسنى من رجال القرن الثالث عشر الهجرى فألف كتابه « نزهة الخواطر » مترجماً به علماء الهند فى القرن الثامن ، فكان بذلك مكملاً لكتاب « الدرر الكامنة » .

ومنذ كتاب ابن حجر فى تراجم المائة الثامنة أخذت تظهر كتب التراجم للقرون الإسلامية التالية . فظهر كتاب « الضوء اللامع » فى أعيان القرن التاسع^(١) « للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ . و « الكواكب السائرة » بأعيان المائة العاشرة^(٢) « للمؤرخ نجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠٦١ هـ ، و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر^(٣) » للمؤرخ محمد أمين بن فضل الله المحبى المتوفى سنة ١١١١ هـ ، و « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لشيخ الإسلام محمد خليل المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ^(٤) . وقد ظهر بأخرة من الزمان كتاب صغير الحجم للمرحوم أحمد تيمور (باشا) المتوفى سنة ١٣٤٨ هـ بعنوان « تراجم أعيان القرن الثالث عشر ، وأوائل الرابع عشر » . وفيه أربع وعشرون ترجمة ، ويظهر أن المؤلف كان فى نيته إتمام الكتاب إلا أن المنية عاجلته ، فلم يستوعب تراجم القرن الثالث عشر كله . وقد طبع ما وجد مخطوطاً من الأصل بعد وفاة صاحبه .

أما كتاب (حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر) للشيخ عبد الرزاق البيطار فقد أصدره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦١ م فى ثلاثة أجزاء كبار

(١) طبع هذا الكتاب فى مصر .

(٢) طبعت أجزاء من هذا الكتاب فى مطبعة الجامعة الأمريكية ببيروت بتحقيق الدكتور جبرائيل سلمان جبور .

(٣) طبع فى مصر فى أربعة أجزاء .

(٤) طبع فى أربعة أجزاء . ثلاثة منها فى الآستانة ، والرابع فى مطبعة بولاق بمصر .

بتحقيق حفيده الأستاذ محمد بهجة البيطار . وهو جليل فى موضوعه . وفيه تراجم لا نجدها فى كتاب غيره .

وقد اتجه بعض كتاب التراجم إلى الترجمة لرجال عصرهم المعاصرين لهم أو لسيوخيهم . كما فعل صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ فى كتابه « أعيان العصر » . وأعوان النصر » ، وابن فضل الله العبرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى كتابه « ذهبية القصر » ، فى أعيان العصر » . وأبو شامة المتوفى ٦٦٥ هـ فى كتابه « الذيل على الروضتين » الذى ترجم فيه لمن عاصروهم من أعيان القرنين السادس والسابع . والذهبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ فى « معجم أشياخه » الذى ترجم فيه لقراية ١٣٠٠ شيخ ، وابن حجر فى كتابه « المجمع المؤسس » للمعجم المفهرس » وقد ترجم فيه لأساتذته وشيوخه .

ولسنا الآن بسبيل إحصاء هذه الكتب . ولكن ما ذكر منها يغنى عن الكثير مما لم تدع حاجة إلى ذكره .

التراجم سنة سنة

لقد كان فى نية ابن خلكان أن يرتب كتابه « وفيات الأعيان » على حسب السنين ، ولكنه عدل عن ذلك إلى الترتيب الهجائى للأسماء ، تسهيلاً لتناول الكتاب كما سبق القول . وقد نهض ابن شاعر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ بما لم ينهض به ابن خلكان . فألف كتابه « عيون التواريخ » فى التراجم مرتباً على حسب السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ هـ . وقد اتجه بعض مؤرخى المسلمين إلى الترجمة للرجال حسب وفيات كل سنة . فى كل سنة يذكر المؤرخ أهم من ماتوا فيها من الرجال فى كل بلد ويترجم لهم تراجم تطول أو تقصر حسب أهميتهم ، كما فعل ابن الجوزى فى كتابه « المنتظم » ، وكما فعل ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » . والحق أن فى هذا النوع من الكتب تراجم هامة تكمل معارفنا عن كثير من الأعلام الذين نريد الوقوف على تاريخ حياتهم . فى « البداية والنهاية » مثلاً

نجد في نهاية الأحداث في كل سنة باباً لذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان في كل ميدان من ميادين العلم والأدب والحكم والسياسة وغيرها .

غير أن كتاباً هاماً في هذا الباب لا يجدر بنا إغفاله . وهو كتاب « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلي المؤرخ المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ . فهو يذكر السنين من السنة الأولى للهجرة إلى السنة الألف . وفي كل سنة يذكر وفيات من ماتوا فيها من أعلام المسلمين في كل ناحية وفي كل ميدان ، ويترجم لكل رجل ترجمة وجيزة جداً ، وقد لا تزيد الترجمة على ذكر الاسم والنسبة وبعض الأعمال والآثار والتصانيف إن كان المترجم له مؤلفاً ، وبعض الشيوخ والتلاميذ إن كان راوياً ، وبعض الأخبار في إنجاز .

وعلى الرغم من قيمة هذا الكتاب فإنه لا يسعف طالب الترجمة إلا إذا كان عالماً بتاريخ وفاة صاحبها . ومن هنا لم يكن كتاباً في التراجم أكثر مما هو سجل تاريخي لوفيات الرجال حسب السنين ، لا حسب الأسماء . وبهذا حقق في الوفيات لألف عام ما عدل ابن خلكان عنه في وفيات سبعة قرون .

التراجم في كتب التاريخ العام

حرص بعض المؤرخين المسلمين وهم يؤرخون تاريخاً سياسياً عاماً للدول الإسلامية المتعاقبة أن لا تفوتهم تراجم الرجال بعد ذكر الحوادث السياسية العامة في كل سنة ، ولا نجد مثل هذا في الكتاب الذي ألفه الطبري عمدة المؤرخين في القرن الرابع الهجري ، فإنه اهتم بالأحداث أكثر مما اهتم بوفيات الرجال وتراجمهم . على حين نجد مؤرخاً كابن الجوزي المتوفى سنة ٥٧٩ هـ يهتم في كتابه « المنتظم » بوفيات الرجال وتراجمهم سنة بعد سنة حتى لتطغى فيه تراجم الوفيات على الأحداث السياسية العامة التي كانت موضع الاعتبار الأول عند الطبري مثلاً . وعلى الرغم من اهتمام ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ بتراجم الوفيات في كتابه « الكامل » فإنها كانت باعتماد كبير ولم تطغ على سير الحوادث التي كان الرجل معنيّاً بإبرازها .

ولقد اهتم الذهبي المؤرخ في كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » بذكر الوفيات سنة سنة ، وذكر طبقاتهم وشيوخهم وأخبارهم في اختصار ، وكذلك فعل سبأ ابن الجوزي المؤرخ المتوفى سنة ٦٥٤ هـ في كتابه « مرآة الزمان » ، كما فعل ابن كثير في « البداية والنهاية » ، وكما صنع ابن تغري بردى المؤرخ المصري في كتابه « النجوم الزاهرة » . والسيوطي المؤرخ في كتابه « حسن المحاضرة » ففيه من تراجم الرجال ما لا غنى للمؤرخ ولا أديب عنه .

ولن نغفل في هذا المقام أن نشير إلى مؤرخ مصر في القرن الثالث عشر الهجري الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المتوفى سنة ١٨٢٥ م ، فإنه ملأ كتابه المشهور « عجائب الآثار . في التراجم والأخبار » بتراجم كثيرة لرجال القرن الثاني عشر الهجري . وقد زاد فيها على ما احتواه كتاب « سلك الدرر » للمرادي واستدرك ما فاتته من مشاهير الأعلام ، وأشار إلى هذا وهو يترجم للمرادي في الجزء الثاني من تاريخه المشهور .

وقد يقتضى النسب والمناسبة بين التاريخ والتراجم أن يودع في كتب التاريخ تراجم الرجال على نحو ما رأينا ، ولكن بعض الأدباء زاد في ذلك وأدخل التراجم في كتب الشروح اللغوية والنحوية والأدبية ، كما فعل ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ في شرحه لرسالة ابن زيدون المسمى « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » فقد ملأ هذا الشرح الأدبي اللغوي بتراجم كثيرة لأعلام المسلمين وغيرهم ممن ورد ذكرهم في رسالة ابن زيدون كالمتنبي وأرسطاطاليس وأفلاطون وبشار والجاحظ وعشرات غيرهم ، وكما صنع البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ في « خزانة الأدب » ، وعبد الرحيم العباسي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ في كتابه « معاهد التنصيص » وهو شرح « لشواهد التلخيص » في علوم البلاغة ، وقد عني العباسي نفسه في التفتيش عن التراجم في كتب الأدب وفي مظانها ، وترك من لم يستطع الحصول على تراجمهم بعد طول الدأب ، وكثرة النصب .

التراجم في كتب الخطط والأمصار :

تناول كتب الخطط الناحية العمرانية ، وناحية المجتمعات العربية الإسلامية لفترة من فترات التاريخ أو لعصر من عصوره . وهى غير تاريخ البلدان والأقطار ، كتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وتاريخ جرجان للسهمي . وتاريخ دمشق لابن عساكر . وتاريخ حلب لابن العديم وغيرها . فهذه التواريخ تتناول الناحية السياسية ، كما تتناول تراجم الرجال الذين ولدوا بهذا البلد أو نشأوا به أو وفدوا عليه . أما كتب الخطط والآثار فتعنى أول ما تعنى بالبلدان نفسها . والآثار ذاتها ، من حيث مواقعها ومعالمها وآثارها الباقية عن الأمم والقرون الحالية . ومن حيث ما شيد فيها من قصور زاهرة ، وما أنشئ فيها من أخطاط ، وما أقيم على أرضها من مبان ، ومساجد . وزوايا . وجوامع . ومدارس . وتكايا . وخوانق للصوفية ، وربط ، وقناطر ، وجواسق ، ومقابر . ومشاهد ، وكنائس . وخنادق ، وقلاع ، وحصون ، وأسواق .

والحق أن الذين ألفوا في الخطط والآثار الإسلامية لم يقفوا عند المباني والمواقع وأشباهاها ، ولكنهم تجاوزوا ذلك إلى التاريخ السياسى تارة . وإلى تاريخ المجتمع وعاداته ووضعاته تارة أخرى ، وإلى تراجم الرجال الذين شيدوا تلك الآثار . وأقاموا تلك المباني . والتعريف بهم تعريفاً يطول ويقصر وفقاً للمجال من ناحية . وللمعلومات حول سيرة المترجم لهم من ناحية أخرى .

والحق أيضاً أننا نجد في كتب الخطط والآثار تراجم لرجال قل أن نحصل على تراجم لهم في كتب أخرى من كتب التاريخ العام . ومن هنا تأتى أهمية كتب الخطط في إمدادنا بفيض من التراجم يضيف إلى حصيلة الترجمة للرجال في الإنتاج التأليفى عند العرب والمسلمين .

وعندنا من كتب الخطط مصدرا كيران حافلان بمئات ومئات من تراجم الرجال ، ولا يستغنى عنهما مؤرخ أو مترجم سيرة مهما كان عنده من كتب أخرى في التاريخ العام والطبقات والتراجم .

والمصدر الأول هو خطط المقرئى . واسمها الكامل « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » وقد صنفها المؤرخ أحمد بن على المقرئى من رجال القرن التاسع الهجرى . وفى خلال الوصف التخطيطى للآثار يحول المقرئى في تراجم الأعلام الذين شيدوا هذه المنشآت ، وهو وإن كان يوجز في الترجمة إلا أنه يلبي حاجة تقوم في نفس القارئ أو الباحث عن معرفة شىء حول صاحب هذا الأثر ، وقد يتعرض لتاريخ مولده ووفاته .

أما المصدر الثانى فهو « الخطط التوفيقية » بأجزائها العشرين للمرحوم على مبارك (باشا) وقد طبعت ما بين سنتى ١٨٨٨ و سنة ١٨٨٩ بعد قيام الثورة العربية بوضع سنوات . وإذا كانت الخطط التوفيقية حافلة بالحديث عن خطط القاهرة وشوارعها ودروبها وحاراتها ومساجدها ومعابدها ومدارسها ، وأقاليم مصر ومدنها وقراها وآثارها القديمة على توالى العصور ، فإنها — فوق ذلك — حافلة بتراجم مئات ومئات من الأعيان والفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء والأولياء والمتصوفة والأمراء من أهل تلك المدن والبلاد ، والقرى والأحياء .

والحق أن في الخطط التوفيقية من التراجم ما لا نجده في مصدر آخر غيرها ، فإن الترجمة التى في الخطط للشيخ حسن العطار — شيخ الأزهر وأستاذ الشيخ رفاعه الطهطاوى — تكاد تكون مصدرنا الوحيد عن حياة ذلك العالم الرائد المجدد^(١) .

وهناك من كتب الآثار العربية الإسلامية ما يمدنا بحصيلة وافرة من تراجم الرجال فوق ما فيها من مادة فنية عن الآثار ذاتها . ولن نخطئنا في ذلك المثال ؛ فإن الكتاب الذى ألفه المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب عن « تاريخ المساجد الأثرية »^(٢) يعد مصدراً طيباً من مصادر الترجمة لمنشئ هذه المساجد . وهكذا نتنقل في أمثال هذه الكتب بين تاريخ اجتماعى ، وتاريخ سياسى ، وتاريخ فنى للآثار ذاتها ، وتراجم للرجال الذين كان لهم في تشييدها نصيب .

(١) انظر كتاب « حسن العطار » لمحمد عبد الفتى حسن في سلسلة نوايغ الفكر العربى — دار المعارف — مصر سنة ١٩٦٨ .
(٢) طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ .

الطبقات في التراجم

طبقات الصحابة

إن كتب الطبقات هي نوع من التراجم يرتب فيه الرجال ويجمعون بحسب العلم الذي تخصصوا فيه وتفرغوا له ، لا بأى اعتبار آخر من اعتبارات الزمان وترتيب الأسماء . وأول من ألف في طبقات الصحابة الإمام البخارى في « التاريخ الكبير » ، وابن سعد في « طبقاته » . وقد سبق أن قلنا إن القصد من كتب طبقات الرجال هو خدمة الحديث النبوى بالحكم على رواته . ووزنهم بأدق الموازين في الرواية والإسناد . وجرحهم أو تعديلهم .

وقد أخذ المصنفون بعد ذلك يؤلفون في طبقات الصحابة وأخبارهم ومناقبهم إلى أن جاء القرن الخامس الهجرى فكتب ابن عبد البر النمرى القرطبي المتوفى سنة ٥٦٣هـ معجمه التاريخي الكبير للصحابة ورواة الحديث ، وأسماء « الاستيعاب » ، في معرفة الأصحاب » وقد رتب أسماء الصحابة فيه ترتيباً هجائياً على طريقة أهل المغرب في ترتيب حروف الهجاء ، ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة آلاف وخمسمائة ترجمة . ويظهر في هذا الكتاب الضخم اتجاه المؤلف إلى الحديث أكثر من اتجاهه التاريخي . فهو محدث قرطبة بل أكبر محدثها في عصره . ولكن معرفته بطبقات الصحابة المحدثين جعلت من كتابه مرجعاً لمؤرخي رواة الحديث .

وفي القرن السابع الهجرى انفراد المؤرخ عز الدين بن الأثير — صاحب كتاب « الكامل » المشهور في التاريخ السياسي العام — بمعجمه الكبير في تراجم الصحابة وقد أربى عدد التراجم فيه على ضعف عددها في كتاب « الاستيعاب » حيث بلغت سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة . واسم كتاب ابن الأثير : « أسد الغابة » ، في

معرفة الصحابة » . وقد اعتمد ابن الأثير على ما ألف من الكتب قبله في طبقات الرجال . وخاصة كتب ابن مندة . وأبي نعيم الأصفهاني . وابن عبد البر النخعي ، وأبي موسى المديني ،

ولما جاء القرن التاسع الهجري كانت تراجم الصحابة قد بلغت أوجها في الكتاب الضخم الذي ألفه المؤرخ ابن حجر العسقلاني بعنوان « الإصابة » . في تمييز الصحابة » وقد رتب الأسماء فيه على حروف المعجم ، وهو جامع لما ذكرناه من الكتب السابقة ، وزاد عليها كثيراً واستدرك ، ودفع كثيراً من الوهم والغلط فيما وقع في التراجم . وأفرد في أحد أجزائه قسماً خاصاً للصحابييات . أما الصحابة المعروفون بكناهم فقد جعل لهم جزءاً مستقلاً .

طبقات الفقهاء

لحق فقهاء المذاهب الإسلامية الأربعة كثيراً من عناية المؤرخين وكتّاب الطبقات حين ترجموا لهم في طبقات الفقهاء عامة ، أو في طبقات المذهب الذي يمثلونه . وكان رجال كل مذهب حريصين على أن يؤرخوا لطبقات الرجال فيه منذ اتصال الطبقة الأولى بالإمام الأول للمذهب . ومن أقدم الكتب في هذا الباب كتاب « طبقات الفقهاء والمحدثين » الذي ألفه الهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ . وفي القرن الخامس الهجري ظهر كتاب « طبقات الفقهاء » لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ويصفه المؤرخ السخاوي بأنه مختصر جداً ، وهو في طبقات المذاهب الأربعة مضافاً إليها المذهب الظاهري الذي أنشأه داود الظاهري الإمام المجتهد الآخذ بظاهر الكتاب والسنة والإعراض عن التأويل والرأي والقياس » توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطبقات الخاصة برجال كل مذهب فكثيرة ، فللشافعية « طبقات الشافعية الكبرى » التي ألفها تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، و « طبقات

الشافعية» لابن قاضي شهبة الدمشقي المتوفى سنة ٨٥١ هـ . وقد بلغ هذا بتراجم رجال المذهب الشافعي إلى سنة ٨٤٠ هـ . واتبع السبكي في ترتيب طبقاته طريقة تقسيمهم إلى طبقات بحسب القرون ، وقد جمع رجال كل قرن مرتين حسب أسمائهم^(١) .

وللحنفية كتاب في « طبقات الحنفية » لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي المتوفى سنة ٧٧٥ هـ ، وهو أول كتاب صنف في تراجمهم ، وعنوانه « الجواهر المضئية ، في طبقات الحنفية » . وقد طبع في حيدرآباد بالهند منذ أربعين عاماً ، في جزئين كبيرين . وفي القرن التاسع ألف المؤرخ ابن دقماق المصري المتوفى سنة ٨٠٩ هـ كتاب « نظم الجمان ، في طبقات أصحاب إمامنا النعمان » ، والجزء الأول منه في مناقب الإمام أبي حنيفة ، وقد ظهرت بعد ذلك كتب في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ ، ولقيتالي زاده المتوفى سنة ٩٧٩ هـ . ولحق الدين بن عبد القادر المصري المتوفى سنة ١٠٠٥ هـ صاحب كتاب « الطبقات السننية في تراجم الحنفية » ، وقد انتهت إليه تراجم رجال المذهب الحنفي كما انتهت إلى ابن حجر المؤرخ تراجم الصحابة في القرن التاسع .

وللحنابلة طبقات أبي الحسين بن أبي يعلى الفراء الشهيد سنة ٥٢٦ هـ^(٢) وقد سطر فيه — كما يقول في المقدمة — ما انتهى إليه من أخبار شيوخه أصحاب الإمام الأفضل أبي عبد الله أحمد بن حنبل ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٥١٢ هـ . وقد ذيله ابن رجب الدمشقي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ ، وبلغ بالتراجم فيه إلى سنة ٧٥٠ هـ ، ونشر المعهد الفرنسي بدمشق بعض أجزائه محققاً ومفهرساً بعناية الدكتور سامي الدهان ، والأستاذ هنري لاوست .

وللمالكية كتاب « المدارك » للقاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وبعضهم

(١) تولى دار عيسى الحلبي إصدار طبقات الشافعية بتحقيق الأستاذين محمود الطناحي ، وعبد الفتاح محمد الحلبي .

(٢) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٥٣ بتصحيح الشيخ محمد حامد الفقي .

يسمى الكتاب « طبقات المالكية » ، وهو أول كتاب ألف في تراجم رجال هذا المذهب ، ولعله فقد فيما ضاع من التراث الإسلامى . وقد وصفه المؤرخ السخاوى بأنه حافل . أما المرجع الذى بين أيدينا الآن فهو كتاب « الديباج المذهب » ، فى علماء المذهب « لابن فرحون المالكى المتوفى سنة ٧٩٩ هـ ، وهو مرتب على حروف المعجم ، وقد فرغ المؤلف من تأليفه سنة ٧٦١ هـ . وفى أول الكتاب أبواب فى ترجيح مذهب الإمام مالك ونسبه وصفاته وشهادة أهل العلم والصلاح له بالإمامة ، وتحريه فى الفتيا ، واتباعه السنن وكراهته المحدثات من البدع ، والحديث عن كتابه « الموطأ » وأخباره ومحتنه . وبعد ذلك يأخذ المؤلف فى الترجمة لرجال المذهب مرتبة أسماءهم بحسب حروف الهجاء .

ولن نختم هذا الباب دون الإشارة إلى كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » للإمام محيى الدين بن شرف النووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ فهو يترجم للرجال الذين تقع أسماءهم فى كتب الشافعية كماختصر للمزنى . والمهذب . والتنبيه . والوسيط . والوجيز . والروضة وغيرها من الكتب المتداولة فى فقه الإمام الشافعى . وهى أسماء كثيرة تزيد على ألف ومائتين من الرجال والنساء ، بدأها بترجمة النبى محمد عليه السلام ، ثم الإمام محمد بن إدريس الشافعى إمام المذهب الذى يترجم لرجالهم ، ثم المحمدين بعد ذلك ، ثم يأخذ فى الترتيب حسب حروف المعجم من الهمزة إلى الياء ، وهو يهتم بأنساب هؤلاء الرجال وشيوخهم وتلاميذهم ووفياتهم والمواضع التى وردت فيها أسماءهم فى كتب الشافعية التى سبقت الإشارة إليها .

طبقات المفسرين والقراء

حينما اتجه كتاب التراجم إلى الكتابة فى طبقات الرجال فإنهم لم يغفلوا الترجمة للمستغلين بالعلوم القرآنية تفسيراً وقراءة ، ولكن هذه الحركة لم تقم مع حركة طبقات رجال الحديث والحفاظ ، وإنما جاءت متأخرة عنها ، والسبب فى هذا

واضح . فإن العناية بتدوين الحديث خشية ضياعه قد دعت إلى العناية برجاله ورواته وذكر أخبارهم حتى تتضح مواقفهم من ناحية الجرح والتعديل والقوة والضعف فى الإسناد . ولما كانت حركة تدوين الحديث سابقة منذ القرن الثانى الهجرى فقد تبع ذلك سبق فى كتابة طبقات المحدثين .

أما المفسرون فقد تأخرت كتابة تراجمهم وطبقاتهم فى كتب مستقلة حتى العصر المملوكى . وإن كان ذلك لم يمنع من ذكر تراجمهم متفرقة فى طبقات أخرى كطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية . فإن هؤلاء المفسرين لكتاب الله لم يخرجوا عن كونهم فقهاء أو من رجال المذاهب الإسلامية .

وأقدم ما نعرفه من « طبقات المفسرين » كتاب بهذا العنوان ألفه الإمام السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، ثم جاء بعده تلميذه الداودى المالكى المتوفى سنة ٩٤١ هـ . فألف معجماً أبجدياً فى تراجم المفسرين .

أما القراء — وهم الذين قرءوا القرآن بطرق أداء مختلفة للكلمات — كابن عامر المتوفى سنة ١١٨ هـ ، وابن كثير المتوفى سنة ١٢٠ هـ . وعاصم المتوفى سنة ١٢٧ هـ وغيرهم فقد وضعت فيهم كتب الطبقات ترجمة لهم ووصفاً لأحوالهم ، وتاريخاً لرجال هذا العلم كما أرخ لغيره من العلوم . ومن أقدم الكتب فى هذا الشأن « طبقات القراء » لأبى عمرو عثمان الدائى المتوفى سنة ٤٤٤ هـ . وكتاب « غاية النهاية . فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية » لشمس الدين الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ . وهو « أجمع الكتب فى هذا النوع » كما يقول صاحب « كشف الظنون » . على أن الإمام الذهبى المؤرخ الشهير المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وصاحب « تاريخ الإسلام » قد ألف كتاباً فى طبقات القراء اختصره من تاريخه الكبير . وهناك كتب أخرى فى هذا الباب لم نذكرها لأننا فى غير مقام الإحصاء .

طبقات المحدثين والحفاظ

تكاد تكون الكتب التي ألقت في تراجم رجال الحديث وطبقاتهم أكثر ما تضمه المكتبة العربية الإسلامية من كتب تراجم الرجال ، وقد يضيق بذكرها مجال كهذا هو لبيان الاتجاهات أكثر مما هو لسرد الأسماء . على أننا لا يجدر بنا إغفال كتاب « الكمال » الذي ألفه أبو محمد عبد الغنى المقدسى الجماعيلي المتوفى سنة ٦٠٠ هـ وجعله معجماً مطولاً لأسماء رجال الحديث الذين وردوا في كتب الحديث الستة ، ورتبه على حروف الهجاء . ثم جاء أبو الحجاج يوسف ابن عبد الرحمن المزى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ فهدبه في كتاب أسمائه « تهذيب الكمال » ، وجاء المؤرخ الذهبي فرتب التهذيب ولخصه وزاد عليه وأسماء « تهذيب تهذيب الكمال » ، ثم جاء ابن حجر العسقلاني المؤرخ المحدث الحفاظ « ٨٥٢ هـ » فهدب تهذيب الكمال في كتاب أسمائه « تهذيب تهذيب الكمال » ، في معرفة الرجال « طبع بالهند في اثني عشر جزءاً سنة ١٣٢٥ هـ ، فكان آخر ما انتهت إليه طبقات رجال الحديث من التهذيب والإتقان . على أننا لا ننسى معاصراً لابن حجر ألف كتاباً في « طبقات المحدثين » من زمن الصحابة إلى أوائل القرن التاسع ، وهو سراج الدين عمر بن الملحق الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤ هـ .

وقد أشرنا في الكلام على طبقات الفقهاء إلى الهيثم بن عدى « ٢٠٧ هـ » الذي ألف كتاباً في طبقات الفقهاء والمحدثين ، فكان بذلك أقدم من نعرف من المؤلفين في طبقات رجال الحديث .

أما الحفاظ فهم الرجال الذين امتازوا بحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يكتفى في الحفاظ بحفظ المتن نفسه ، بل عليه أن يحفظ سلسلة سند الحديث لا يخرم منه حرفاً ، ولا يسقط راوياً . وفي ذلك من المشقة وإجهاد

الحافظة وتطلب القوة فيها ما ليس في رواة الأدب والشعر . وكان لحفاظ الحديث في ذلك مقدرة عجيبة ، فقد حكوا أن عبد الله بن سليمان بن الأشعث المتوفى سنة ٣١٦ هـ كان يحدث في دار الوزير على بن عيسى ، وقد نصب له الساطان منبراً يحدث عليه . فلما خرج مرة إلى سجستان سأل أهله أن يحدثهم . فقال : ما معي أصل ! فقالوا : ابن أبي داود وأصول ؟ ! فأملى عليهم من حفظه ثلاثين ألف حديث ، فلما قدم بغداد قال البغداديون : مضى ابن أبي داود إلى سجستان ولعب بالناس ! ثم فيجوا فيجاء بستة دنائير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة فكتبت وجرى بها . وعرضت على حفاظ بغداد . فخطأوه في ستة أحاديث ! لم يكن خطأ إلا في ثلاثة منها .

وتبين لنا القصة التالية وجه المشقة في حفظ الحديث أكثر من حفظ الشعر . فقد جاء أبو الفضل الهمداني المتوفى ٣٩٨ هـ نيسابور فأعجب الناس بكثرة حفظه وتعصبوا له ولقبوه ببدیع الزمان . وأعجب الهمداني بنفسه لأنه كان يحفظ المائة بيت إذا أنشدت بين يديه مرة . وينشدها من آخرها إلى أولها مقلوبة . وبلغ به الإعجاب أنه أنكر على الناس قولهم : فلان الحفاظ في الحديث . وقال : هل حفظ الحديث مما يذكر ؟ ؟ فسمع به الحاكم النيسابوري ، فوجه إليه بجزء من الحديث . وأمهله أسبوعاً في حفظه ، فرد بديع الزمان إليه الجزء بعد الأسبوع قائلاً : من يحفظ هذا ؟ محمد بن فلان ، وجعفر بن فلان ، عن فلان ! أسام مختلفة . وألفاظ متباينة ! فقال له الحاكم : إذن فأعرف نفسك ! واعلم أن حفظ هذا أضيق مما أنت فيه !

هؤلاء هم حفاظ الحديث . وهذه هي مقدرتهم في حفظ الحديث النبوي ، وقد ألقت كتب في تراجمهم وطبقاتهم ، من أقدمها كتاب « طبقات الحفاظ » للمؤرخ شمس الدين الذهبي « ٧٤٨ هـ » ، وقد اقتطعه من كتابه الواسع في التاريخ وطبقات المشهورين الأعلام . وقد ذيل عليه جماعة من العلماء والمؤرخين ،

منهم الحافظ الحسيني الدمشقي « ٧٦٥ هـ » ؛ والحافظ ابن فهد المكي « ٨٧١ هـ »^(١) في كتابه « لحظ الألفاظ ، بذيل طبقات الحفاظ » ؛ والحافظ السيوطي المؤرخ « ٩١١ هـ » .

طبقات النحاة

لقد كان للنحويين واللغويين كتب الطبقات الخاصة بهم . وقد شهد القرن الثالث الهجري أول كتاب ألف في تراجمهم صنفه أبو العباس المبرد النحوي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ . ولكنه اقتصر فيه على رجال مدرسة البصرة التي كانت المدرسة النحوية القوية المقابلة لمدرسة الكوفة ، وفي القرن الرابع ظهر كتابان في تراجم النحاة : أولهما لأبي سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ هـ الذي ألف كتاب « أخبار النحويين البصريين »^(٢) وهو موجز صغير الحجم . أما الكتاب الثاني فهو « طبقات النحويين واللغويين »^(٣) الذي ألفه أبو بكر بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ ، وترجم فيه لأعلام النحاة واللغويين منذ أيام أبي الأسود الدؤلي حتى بلغ شيخه الرباعي المتوفى سنة ٣٥٨ هـ . وقد استفاد من هذا الأصل في تراجم النحاة وأهل اللغة كثير ممن كتبوا في التراجم بعد ذلك كابن الفرضي الأندلسي « ٤٠٣ هـ » . وياقوت الرومي . والقفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ . والسيوطي ، والمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . وغيرهم .

وفي القرن السابع الهجري ظهر كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للوزير جمال الدين القفطي . بدأه بترجمة شيوخ النحو في عهد أبي الأسود

(١) ذكر في « كشف الظنون » أنه توفي سنة ٨٩٠ هـ . والصواب ما نقلناه عن « الضوء اللامع » للسخاوي .

(٢) نشره معهد المباحث الشرقية بالجزائر بتهديب المستشرق ف . كرنكو سنة ١٩٣٦ م .

(٣) نشر أخيراً بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

حتى عصر المؤلف ، والتراجم مرتبة فيه على حسب حروف الهجاء ، وقد بلغت قرابة ألف ترجمة لعلماء النحو في كل عصر وفي كل أرض إسلامية ، حتى أولئك الذين في جزيرة صقلية وغزنة وما وراء النهر .

وقد اعتمد القفطي على ما كتب قبله من التراجم وعلى رواياته ومسموعاته من الشيوخ والرجال الذين لقيهم في أسفاره ، وعلى ما دار بينه وبين العلماء من مكاتبات .

على أن مشكلة الأسماء والألقاب والكنى والشهرة قد صادفت القفطي ولم يستطع التغلب عليها ، فقد يكرر الترجمة للشخص مرتين ، مرة باسمه ومرة بكنيته أو بشهرته . ولكن ذلك وقع في الكتاب على قلة .

ولما كان القفطي حريصاً على الترجمة لمن كان له أدنى مشاركة في النحو أو اللغة فقد حفل كتابه الضخم بترجمة كثيرين من الأدباء والشعراء والكتاب والفقهاء والمحدثين وغيرهم ممن أسهموا في النحو ولو بأدنى نصيب ، ومن هنا كان « إنباه الرواة » كتاباً في تراجم الأدباء والعلماء عامة^(١) .

وقد انتهت الكتابة في تراجم النحاة إلى الإمام المؤرخ السيوطي « ٩١١ هـ » في كتابه « بغية الوعاة ، في طبقات اللغويين والنحاة » ، وقد ترجم للنحاة من عهد أبي الأسود إلى عصره ، فكان نهاية المطاف في تراجم النحويين ، ورتب التراجم على حروف المعجم ، ولكنه بدأ بذكر من اسمه محمد تيمناً بالاسم النبوي الكريم ، ثم تلا ذلك بأسماء الأحمدين ، وبعد ذلك اتبع ترتيب حروف الهجاء . وقد يكون من النصفة للرجال أن نشير إلى الكتاب الضخم الذي ألفه تاج الدين بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وأسماء « الجمع المتناه » ، في أخبار اللغويين

(١) بذل الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في تحقيق هذا الكتاب الثمين جهداً كبيراً جديراً بالثناء عليه ، وقد توج الجهد بذكر مصادر الترجمة المتنوعة الكثيرة وأجزائها وأرقام صفحاتها لكل نحوي أو أديب مترجم له . ونرجو أن يتم إصدار هذا الكتاب ليتحقق به النفع .

والنحاة » ، وقد أشار إليه السخاوي ، وذكر أنه وقف على عدة أجزاء منه بخط المؤلف ، وبلغت تراجم « المحمدين » فيه وحدهم مجلداً كبيراً . ويقول عنه حاجي خليفة صاحب « كشف الظنون » إنه « كتاب كبير في نحو عشر مجلدات ، لكنه لم ينتشر ، وبقي في المسودة ففرقت » ، وقد يكون هذا هو الملخص لكتاب « إنباه الرواة » ، وتوجد منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية .

طبقات الشعراء

لقد سبق ابن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣١ هـ كتاب الطبقات والتراجم في كتابه الذي ألفه في « طبقات فحول الشعراء » ، والحق أنه من أول الكتب في هذا الفن ، وقد أخذ المؤلفون بعد ذلك يصنفون في تراجم الرجال على حسب طبقاتهم وتصنيف علومهم ، ولعل كتاب الجمحي كان ردّاً أو تصحيحاً لوضع المؤرخ محمد بن إسحاق وموقفه من الشعر العربي ، فقد آثم هذا الراوية المؤرخ الكبير بأنه ممن أفسد الشعر وهجنه ، وحمل كل غناء منه ، على علمه بالسير . وقد قبل الناس منه هذه الأشعار المضعفة ، وكان هو يعتذر من ذلك بقوله : لا علم لي بالشعر ؟ وقد لامه ابن سلام قائلاً : أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟

لهذا حرص ابن سلام الجمحي على تأليف كتابه في طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، حتى لا يكون الجهل بتاريخهم ومنازلهم في الشعر أدعى إلى الجهل بثروة تعد من أصول الأدب العربي . وقد حمل الشك والريبة في الشعر المروى ابن سلام على أن يعرف طبقات الشعراء وأخبارهم ، كما حمل الحرص في تدوين الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأليف الكتب في الرجال والرواة وأصحاب السند وجرحهم وتعديلهم .

ولم يكن ابن سلام أديباً أكثر مما كان مؤرخاً وراوياً للشعر ، إلا أن ناحية

الأدب في تراجم الشعراء تظهر لنا بوضوح عند الأديب المؤرخ ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « الشعر والشعراء »^(١) الذي يحتوي « على تراجم المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله » . ويدلنا هذا النص من مقدمة الرجل على أن المهمة من تراجم الشعراء كانت منصرفة إلى خدمة اللغة والنحو والقرآن الكريم .

وفي القرن الرابع الهجري اتجه الإمام أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى الترجمة للشعراء بحسب جماعات الأسماء . فهناك مثلاً جماعات الشعراء المسمين باسم عمرو . وهناك المسمون باسم عمارة . وهناك المسمون باسم موسى . وهكذا . وهو ترتيب على حروف المعجم إلا أنه جمع الأسماء المتشابهة في باب واحد . والحق أن في هذا الكتاب من التراجم ما لا نجده في مصدر آخر . أو ما نجد مشقة كبيرة في الحصول عليه .

وفي ذلك القرن بالذات نجد شعراء القرن الرابع في جميع أقطار الإسلام يترجم لهم وتجمع أخبارهم وأشعارهم في كتاب ألفه الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ . وقد أسمى كتابه « يتيمة الدهر » . والحق أن هذا الكتاب صورة صادقة حية لتطور الشعر العربي في القرن الرابع . وللأبواب الكثيرة التي طرقها . وللشعراء الذين كانوا في ذلك العصر يملأون الدنيا مدحاً وهجاء وغناء ووصفاً ومعانيات تصور لنا روح المرح والدعابة . ولم يرتب الثعالبي كتابه حسب الأسماء ، ولكنه رتبته على حسب الأقاليم الإسلامية العربية . فهناك قسم لشعراء آل حمدان والشام ومصر والمغرب . وهناك قسم لشعراء العراق . وثالث لشعراء فارس وجرجان وأصفهان وطبرستان . ورابع لشعراء خراسان وما وراء النهر . وتمتاز « يتيمة » بأنها حفظت لنا نماذج كثيرة فائنة من الشعر العربي في القرن الرابع . ولم يكن مجالها محصوراً ضيقاً في العراق والشام ومصر . بل ذهب إلى أبعد الحدود وما وراء

(١) نشر هذا الكتاب محققاً مشروحاً مفهرساً بعناية المحرم الشيخ أحمد محمد شاكر .

التخوم . فهو يصور لنا مثلاً حالة الأدب والشعر في الدولة الحمدانية . ودولة بني بويه ، والدولة السامانية ، والدولة الغزنوية ، مما قد كان محتملاً أن يكون مظنة الضياع ، لو لم يحفظه لنا الثعالبي .

وقد يقال إن الثعالبي قد تأنت في صوغ عبارات الكتاب وأكثر السجع في تراجمه . مما قد يكون على حساب المعنى والدقة في الترجمة ، وعذر الرجل أنه كان صدى لوحى عصره ، وما ظنك بكاتب يعاصر الخوارزمي والصابي والصاحب ابن عباد وبديع الزمان الهمداني وغيرهم من أئمة السجع في النثر العربي ؟

وقد يقال أيضاً إن الثعالبي لم يهتم بمواليد الشعراء ووفياتهم ، وأهمل تلك الناحية الهامة في الترجمة ، إلا أن الرجل كان منشئاً أكثر مما كان مؤرخاً و مترجماً ، فغلبت عليه صفته . ولكن ذلك لا ينقص من قدر هذا الكتاب الجليل .

ومن كتب التراجم للشعراء كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وهو لم يوضع في الأصل ليكون كتاباً في الترجمة للشعراء ، وإنما وضع للأصوات التي كان الرشيد أمر إبراهيم الموصلي مغنيه وغيره أن يختاروها له . وقد توسع أبو الفرج في الكتاب فاستطرد كثيراً في ذكر الشعراء أصحاب الأبيات التي تغنى ، وترجم لهم من عهد الجاهلية إلى عصره ، وروى أكثر قصائدهم ، وألم بكثير من أخبارهم ، فكان كتابه بذلك موسوعة كبرى لا للشعر وحده ، ولكن للأدب العربي على جهة العموم .

وقد أتم الباخري « ٤٦٧ هـ » صاحب « دمية القصر » ، والوراق الخطيرى صاحب « زينة الدهر » المتوفى سنة ٥٦٨ هـ ، والعماد الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ صاحب « خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر » كتاب اليتيمة للثعالبي . وبلغوا بتراجم الشعراء فيه إلى القرن السادس الهجري . وفي القرن السابع كتب ملك من ملوك بني أيوب كتاباً في « طبقات الشعراء » دل على اهتمام أبي المعالي الملك المنصور ابن أيوب بأخبار الشعراء .

وقد رأينا النزعة الإقليمية تظهر في تراجم الشعراء عندما ألف ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٦٧٣ هـ كتابه « القدح المعلى » في التاريخ المحلي « الذي ترجم فيه لشعراء الأندلس في النصف الأول من القرن السابع الهجري . والحق أن الثعالبي صاحب « اليتيمة » كان أوسع نظرة إلى هذا الموضوع فترجم لشعراء المسلمين في داني الأرض وبعيدها كما سلف القول .

ولقد عادت النزعة الإسلامية العامة إلى الظهور حينما ألف ابن معصوم الحسيني المتوفى سنة ١١٠٤ هـ كتابه « سلافة العصر » ، في محاسن أعيان العصر » ، وقد ترجم فيه لشعراء القرن الحادى عشر الهجري : في الشام ومصر وأهل الحرمين واليمن والعراق والبحرين والعجم والمغرب .

طبقات الصوفية

لقيت طبقات الصوفية اهتماماً كثيراً من مؤرخي المسلمين وكتاب التراجم في هذا الباب ، وقد عد السخاوى المؤرخ . وحاجى خليفة طائفة كثيرة من هذه الكتب التي يرجع أقدم مؤلفاتها إلى القرن الثالث الهجري . حين وضع محمد ابن على الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٢٥٥ هـ كتابه .

وحفل القرن الرابع ببضعة من كتب تراجم رجال التصوف والنسك ، أهمها « طبقات النساك » لابن سعيد الأعرابي المتوفى سنة ٣٤١ هـ . و « تاريخ الصوفية » لأبي العباس أحمد بن محمد بن زكريا النسوى المتوفى سنة ٣٩٦ هـ ، و « أخبار الصوفية والزهاد » لمحمد بن داود النيسابورى المتوفى سنة ٣٤٢ هـ .

أما القرن الخامس الهجري فكان مظهراً لنشاط اثنين من كبار المشتغلين بتاريخ التصوف والمتصوفة ، وهما أبو عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ . وأبو نعيم الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وقد ترك لنا السلمى كتابه « طبقات

الصوفية»^(١) وقسمهم إلى خمس طبقات افتتح الأولى بالفضيل بن عياض ،
والثانية بالحنيد ، والثالثة بأبي محمد الحريري ، والرابعة بأبي بكر الشبلي ، والخامسة
بأبي سعيد بن الأعرابي ، ولم يراع في الأسماء ترتيباً معجبياً ولكنه راعى الطبقات
وحدها ، فيذكر منصور بن عمار قبل أحمد بن عاصم الأنطاكي مثلاً . وليس
له منهج موحد في ذكر الموالد والوفيات فحيناً يذكرها ، وكثيراً ما يهملها .

أما أبو نعيم فترك لنا « حلية الأولياء » الذي وصفه السخاوي المؤرخ بأنه
« كتاب حافل ، وهو عمدة كل من جاء بعده » وزاد السخاوي على ذلك قوله :
« والتقط ابن الجوزي منه ما أودعه من زيادات في كتابه : « صفة الصفوة » . على
أننا لن نغفل في القرن الخامس - أيضاً - الصوفي الكبير أبا القاسم عبد الكريم
القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ الذي ترجم في كتابه المشهور : « الرسالة القشيرية » لطائفة
من رجال التصوف ، وهو تلميذ السلمي السابق ذكره ، وقد تأثره في ترتيبه الطبقات .

أما القرن السادس فقد ظهر فيه كتاب « صفة الصفوة » للمؤرخ ابن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وهو يعد في الحق - تهذيباً وتلخيصاً لحلية أبي نعيم
وتصحيحاً لرواياتها ، واتبع في تبويبه طريقة البلدان ، فبدأ بالمدينة فمكة فبغداد
وهكذا حتى بلغ المغرب فالسواحل والفلوات . فإذا ذكر بلداً ذكر طبقات من
فيه من النساك وأهل العبادة والزهد من الرجال والنساء . وقد زادت التراجم فيه على
ألف ترجمة ، على حين أنها بلغت في طبقات السلمي مائة وثلاثة من الرجال .

وقد انتهت تراجم الصوفية في القرن العاشر الهجري إلى الصوفي المؤرخ
عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ في كتابه : « لوائح الأنوار ، في طبقات
الأخيار » وقد اشتهر باسم « طبقات الشعراني الكبرى » ، وقد ترجم فيه لأهل
التصوف منذ نشأته في الإسلام إلى العصر الذي عاش فيه ، فكان بذلك أوفى
وأوسع مرجع لمن تفوته تراجم كثير من المتصوفة في غيره من الكتب .

(١) نشر أخيراً بتحقيق الأستاذ نور الدين شريعة وقد أحسن بذكر مصادر الترجمة وأجزائها
وصفحاتها المترجم لم ، فسهل بذلك البحث على الباحثين .

طبقات القضاة

كان القضاء أول الأمر يتولاه النبي عليه السلام بنفسه . ولما انتشرت الدعوة
عهد به إلى بعض ولاته ، وظل الحال على ذلك إلى أن جاء عمر بن الخطاب فعين
القضاة على الأمصار المختلفة . وخصهم بولاية القضاء وحدها ولاية عامة . وأخذ
عدد القضاة يتزايد في الأقطار الإسلامية . وكانت لهم أحكام وآثار وأخبار ،
فاتجه كتاب التراجم إلى الترجمة لهم كما ترجموا لغيرهم من أصحاب العلوم والفنون .
ولعل أقدم كتاب في طبقات القضاة هو « قضاة البصرة » لأبي عبيدة معمر
ابن المنثري البصري المتوفى سنة ٢٠٩ هـ كما ذكر صاحب « كشف الظنون » .

وقد ظهرت الإقليمية واضحة فيما ألف من كتب طبقات القضاة ، ففي مصر
نجد المؤرخ أبا عمر محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٥ هـ يؤلف كتابه
« أخبار القضاة المصريين » وينتهي بهم إلى سنة ٢٤٦ هـ ، ونجد ابن زولاق
المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٨٧ هـ يؤلف كتاباً يتم به كتاب الكندي السابق
ذكره ، وينتهي به إلى سنة ٣٨٦ هـ أي قبيل وفاته بعام واحد ، وقد أشار السخاوي
إلى الكتائين في « الإعلان بالتوبيخ » . ثم جاء القرن التاسع فنجد المؤرخ ابن
حجر يؤلف كتاب « رفع الإصر » عن قضاة مصر . وقد بلغ فيه بالتراجم
للقضاة المصريين إلى المائة الثامنة .

وفي الشام نجد المؤرخ شمس الدين بن طولون - من رجال القرن العاشر
الهجري - يؤلف كتاباً في « قضاة دمشق » اسمه « الثغر البسام » ، في ذكر من ولى
قضاء الشام ، وقد نشره المجمع العلمي بدمشق .

وهنا نجد الشعر يتدخل في الترجمة للقضاة ، فزى ابن دانيال الموصلى الحكيم
ينظم أرجوزة في قضاة مصر سماها « عقود النظام » ، فيمن ولى مصر من الحكام ،
ونرى ابن اللبدي الدمشقي ينظم كذلك أرجوزة في قضاة دمشق .

وفي الأندلس نجد مؤلفي الطبقات يؤلفون في تراجم القضاة بالأندلس منذ

أن فتحها المسلمون على يد موسى بن نصير . ومن أوائل المؤلفين في ذلك المؤرخ
الفقيه أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الحشني المتوفى سنة ٣٦١ هـ ، وقد
ترجم لقضاة الأندلس حتى سنة ٣٥٦ هـ ، حينما ولي القضاء محمد بن إسحاق
ابن السليم عقب القاضي المشهور منذر بن سعيد . وقد بلغ عدد التراجم في الكتاب
خمسین ترجمة رتبت ترتيباً زمنياً بحسب تنابع القضاة في عمل القضاء . وفي القرن
الثامن الهجري نجد الشيخ أبا الحسن النباهي المالقي يؤلف كتاباً في تاريخ قضاة
الأندلس ويسميه « المرقبة العليا » ، فيمن يستحق القضاء والفتيا « وهو يضم إلى
تراجم القضاة فصولاً في القضاء والعدل والحصال المعبرة في القضاة ، والتحذير
من الحكم بالباطل أو الجهل ، وغير ذلك من المسائل التي تتصل بموضوع القضاء .

طبقات الأطباء

من عجب أن يكون نصيب الأطباء في كتب الطبقات والتراجم أدنى
نصيب ، حتى لم يذكر لهم السخاوي المؤرخ إلا كتاباً واحداً هو كتاب « عيون
الأنبياء » ، في طبقات الأطباء « لابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، وقد بوبه
المؤلف طبقات بحسب البلاد والأهم والملل . فهناك طبقة الأطباء اليونانيين -
وهؤلاء أقسام - وهناك الأطباء العرب الذين كانوا في ظهور الإسلام ، وهناك
أطباء السريان ، وأطباء النقلة والمترجمين من اللسان اليوناني إلى العربي ، وأطباء
العراق والحزيرة ، وأطباء العجم ، وأطباء الهند ، وأطباء المغرب ، وأطباء مصر ،
وأطباء الشام . ولم يراع المؤلف ترتيب الأسماء بحسب حروف الهجاء ، فهم يردون
في كل طبقة بغير ترتيب ، مما يجعل البحث عن المترجم له عملاً صعباً ، ولهذا رتبته
على المعجم النجم ابن فهد كما ذكر السخاوي ، وقد سوغ ابن أبي أصيبعة
تصرفه في هذا الترتيب غير المعجمي بأنه « ذكر كل واحد منهم في الموضع الأليق
به ، على حسب طبقاتهم ومراتبهم » .

ولا شك أن الترجمة لأكثر من أربعمائة طبيب في مشارق الأرض ومغاربها
وذكر طرف من أخبارهم ونواديرهم ، عمل يحتاج إلى مصادر ومراجع لم يذكرها
لنا المؤلف في مقدمته ، ولكنه على كل حال حفظ لنا كثيراً من المعارف الطبية
التاريخية في كتب قد ضاعت ولم تصل إلينا اليوم إلا في نتف من هذا الكتاب
الذي حققه ونشره المستشرق مركوس مولر ، الذي سمي نفسه باسم « امرؤ القيس
ابن الطحان » وهو تعريب طريف للاسم الأعجمي !

وقد ظل « عيون الأنبياء » منذ منتصف القرن السابع الهجري هو المصدر
الوحيد في تراجم الأطباء إلى عصر مؤلفه ، إلى أن جاء المرحوم الدكتور أحمد
عيسى الطبيب اللغوي المحقق من أهل زماننا ، فصنع له ذيلاً من سنة ٦٥٠ هـ إلى
سنة ١٣٦١ هـ المقابلة لسنة ١٩٤٢ م . فكان بذلك وصلاً لتاريخ الأطباء .

وقد خالف الدكتور أحمد عيسى طريقة سلفه ابن أبي أصيبعة في الترتيب ،
فجعل الأعلام في كتابه مرتبة على حروف المعجم تسهيلاً للباحثين . وتيسيراً على
المراجعين .

بقي أن نقول إن هناك طائفة من الحكماء الفلاسفة الذين اشتغلوا بالطب
كما اشتغلوا بالفلسفة ، وهؤلاء قد ترجم لهم ابن أبي أصيبعة لأنهم يدخلون في سمط
كتابه ، وكذلك فعل القفطي في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » حين
ترجم للأطباء الذين اشتغلوا بالحكمة والفلسفة .

طبقات الفلاسفة والحكماء

لعل أقدم كتاب في تاريخ الفلاسفة والحكماء هو كتاب « صوان الحكمة^(١) »
الذي ألفه أبو سليمان المنطقي السجستاني من حكماء القرن الرابع الهجري ، وقد
ذكر البيهقي أن له تصانيف كثيرة أكثرها في المعقولات . وفي القرن السادس ظهر

(١) « في كشف الظنون » اسمه « صنوان الحكمة » ، وفي مقدمة « تاريخ حكماء الإسلام »
لبيهقي اسمه « صوان الحكمة » ، وكذلك ورد اسمه في متن حكماء الإسلام .

كتاب « تاريخ حكماء الإسلام » لظهير الدين البيهقي الحكيم المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وهو غير البيهقي المحدث أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب « السنن » في الحديث النبوى . ولم يرجع البيهقي الحكيم في تراجم الحكماء والفلاسفة إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس ، إلا قليلا . من الحكماء غير المسلمين من أهل القرنين الثالث والرابع . ولم يتعرض لمن ترجم لهم صاحب « صوان الحكمة » من قبله اعتقاداً منه أنه وفاهم حقهم . ولم تتسع تراجمه لأحد من أهل الشام والمغرب والأندلس ، ولعل أحوال عصره وكثرة الفتن والحروب الصليبية في عهده لم تسعفه بما كان يجب أن تتم به تراجمه ، وأكثر تراجمه موجزة حتى لتبلغ في بعض الحكماء ثلاثة أسطر ، كترجمته لمحمد بن أيوب الطبرى صاحب الزيج .

أما القرن السابع فقد خلف لنا كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للوزير المؤرخ المصرى جمال الدين يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وصاحب كتاب « إنباه الرواة » الذى سبقت الإشارة إليه في الحديث عن طبقات النحويين . وقد ترجم القفطى في كتابه للحكماء عامة عند اليونان والرومان ، وأهل الإسكندرية والفرس والعرب في القديم وبعد المسيحية والإسلام إلى زمانه ، وذكر طرفاً من مآثور قولهم ، ومذاهبيهم ومصنفاتهم . ورتبهم فيه على حسب حروف الهجاء ، ثم ألحق بذلك فصلين في الكنى المبدوءة بأبى فلان ، وابن فلان تسهيلاً للتناول . ولا يذكر في التراجم موالد الحكماء ، أما الوفيات فلا يذكرها إلا قليلا .

تواريخ البلدان وتراجم رجالها

حين اتسعت رقعة المملكة الإسلامية ، وأخذت الأمصار والأقطار يزيد عددها ، وصارت المدن الكبرى والخواضر العظيمة مهوى أفئدة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمفسرين والمحدثين وغيرهم من الأعيان والمشهورين ، أصبحت الضرورة تقضى بأن يؤرخ لهذه البلدان ، لا تواريخ جغرافية ، ولكن تواريخ « بيوجرافية » تذكر أسماء من ولد فيها أو نشأ بها أو وفد عليها أو خرج منها ، من العلماء والأدباء والعظماء في كل علم وفن . فكان من ذلك مجموعة غنية من كتب البلدان الحافلة بالتراجم الكثيرة لأهل هذا الإقليم من المشهورين أو الوافدين عليه . على أن هناك كتباً في تواريخ البلدان وجغرافيتها وأخبارها ، ولكنها خالية من التراجم الوافية ، كما في كتاب « معجم البلدان » لياقوت الرومى ، وكتاب « المسالك والممالك » للبكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ . وكتاب « مسالك الأبصار » لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

وهناك كتب تعالج تواريخ البلدان من حيث فتوحها ، وأخبار تلك الفتوح ، وما تم فيها من الأخذ صلحاً أو عنوة . وما جرى فيها من الحروب ، مثل كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، و « فتوح الشام » للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ .

ويهمنا من كتب تواريخ البلدان التى امتلأت بتراجم الرجال طائفة تمثل اتجاهات التأليف في هذا الباب .

وأقدم الكتب في هذا الباب وأوسعها كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وهو كتاب ضخم تناول فيه مؤلفه أولاً وصف عاصمة الخلافة العباسية وما كانت عليه من الحضارة والمدنية ، ثم أخذ يترجم

لأصناف المشهورين من الرجال ممن نبيغ فيها أو ورد عليها من غير أهلها. مع ذكر أخبارهم ومشهور آثارهم ومؤلفاتهم .

وقد رتب الخطيب الأعلام المترجمة على نسق حروف المعجم . مراعيًا أول أسمائهم لا الأسماء التي اشتهروا بها ، واختص المحمدين بالبداية تبركاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد ذلك جرى في ذكر الأسماء على ترتيب الحروف . وتصادف المطالع — من جراء هذا الترتيب بحسب الأسماء لا أسماء الشهرة — نفس الصعوبة التي نجدها في كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان — كما سلف القول . وقد قيد الخطيب نفسه في مقدمة كتابه بذكر تاريخ وفيات المترجم لهم ، وألزم نفسه بقيده ، وكثيراً ما نراه يرجع بين روايتين في تاريخ الوفاة ، لاعتبارات يراها قريبة إلى الصواب ، أو لما يقوم عنده من المرجحات . وقد لقي « تاريخ بغداد » من الشهرة والقبول ما دعا العلماء إلى النسخ على منواله فيما يتصل بالبلدان والعواصم الإسلامية الأخرى . فجاء ابن عساكر المؤرخ والمحدث المشهور « توفي سنة ٥٧١ هـ » وكتب كتابه الضخم « تاريخ دمشق » ، وجرى على طريقة الخطيب البغدادي في الاتساع والإفاضة والشمول لتراجم الرجال الذين ولدوا بدمشق أو نزلوا بها ، ولم يترك — كما صنع الخطيب — عالماً أو راوياً أو محدثاً أو مفسراً أو مؤرخاً أو سياسياً أو أديباً أو شاعراً أو صاحب قدر إلا ترجم له وذكر شيئاً كثيراً من أخباره وآثاره وأقواله . وقد جرى فيه على طريقة الإسناد كما صنع الخطيب البغدادي . والمؤرخان متأثران هنا بطريقة أهل الحديث والحفاظ . فقد كان كل منهما حافظاً من أكبر الحفاظ في عصره ، فالبغدادي محدث العراق وعاصمة العباسيين في وقته ، وابن عساكر محدث الشام في زمنه . وقد صنع علماء الأمصار الإسلامية غير العربية ما صنعه البغدادي وابن عساكر في العاصمتين العربيتين الكبيرتين . فرأينا الرجال يؤلفون في تواريخ أذربيجان ، وإربل ، وأصبهان ، وجرجان ، وبخارى ، وبلخ ، وغيرها . ويحضرنا هنا — على سبيل الاستشهاد — كتاب « تاريخ جرجان » أو كتاب « معرفة علماء

أهل جرجان » الذي ألفه حمزة بن يوسف السهمي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ . وقد قسم كتابه إلى أربعة عشر جزءاً ، وتحدث فيه عن فتح جرجان ومن دخلها من الصحابة والتابعين . ولم يفته بالطبع أن يترجم ليزيد بن المهلب فاتح جرجان وأن يذكر نسبه وأولاده وبيته ، وبعد أن ذكر أسماء عماله من الأمويين والعباسيين وسمى خطط المساجد في عهدهم ، ابتداءً يترجم للرجال مرتبة أسمائهم على حروف المعجم ، ولم يراع إلا الحرف الأول فقط من الاسم . ومن هنا ترجم لأحمد قبل الترجمة لإبراهيم ، ولو أنه راعى ترتيب الحروف التالية للأول لترجم لإبراهيم قبل أحمد ، لأن الباء تقع قبل الحاء . وألحق بالكتاب باباً لتراجم المشهورين بكنائهم ، ثم تراجم النساء . ولما كان السهمي محدثاً كبيراً فقد اتبع طريقة المحدثين في الإسناد ، فيقول مثلاً : حدثنا فلان عن فلان عن فلان ، حتى يصل إلى الراوي الأول للخبر^(١) .

ولم يفت مؤرخي الأندلس أن يترجموا لعلماء البلدان والمدن الأندلسية حين يؤلفون في تواريخ البلاد . فهناك كتب كثيرة ألقت في رجال الجزيرة الخضراء بالأندلس وألبيرة وقرطبة وغرناطة وغيرها ، ويحضرنا الآن كتاب « الإحاطة^(٢) » ، في أخبار غرناطة « للوزير لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ .

وقد كتب ابن الخطيب مقدمة لكتابه الواسع ذكر فيها الباعث له على تأليف الكتاب ، وهو باعث يرجع إلى « العصبية الإقليمية » كما صرح بذلك في قوله : « فداخلتني عصبية لا تقدر في دين ولا منصب ، وحمية لا يذم في مثلها متعصب » وألحق أن ابن الخطيب قد كشف في مقدمة كتابه عن روح وطنية قومية عالية دفعته دفعاً إلى تأليف هذا الكتاب ، وكان غرامه بالأندلس عامة وبوطنه غرناطة خاصة سبباً في إنجاز هذا المؤلف الواسع . ويصرح ابن الخطيب

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة في حيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٩٥٠ م .

(٢) نشرت دار المعارف أول أجزاءه بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ولم تظهر بقية الأجزاء حتى اليوم .

في موضع آخر من المقدمة بوطنيته فيقول : « فلست ببدع من فتن بحب وطن ، ولا بأول من شاقه منزل فألقى بالعطن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه . وطره مغرى بإتمام محاسنه » .

ولعل ما صرح به ابن الخطيب هنا يعبر أصدق تعبير عن الدوافع الحقيقية التي دفعت مؤرخي تراجم البلدان إلى كتابة مؤلفاتهم ، فالبغدادى يتعصب لبغداد وطنه ، وابن عساكر الدمشقى يتعصب لدمشق وطنه ، والأزرقى المتوفى سنة ٢٢٣ هـ يتعصب لمكة ولو أنه يبنى ، لأنه جاء مكة فعاش بها وتوفى فيها ، وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ يتعصب لوطنه أصبهان فيكتب كتابه « تاريخ أصبهان » في تراجم أعيانها وعلمائها .

ولسنا الآن بسبيل إحصاء كتب تواريخ البلدان وتراجم رجالها ، فهي مذكورة في كتب التاريخ الأدبي ، وفي « كشف الظنون » لحاجي خليفة ، وفي « الإعلان بالتوبيخ » للسخاوى . وفي مقدمة ابن الخطيب للإحاطة طائفة كبيرة من أسماء هذه الكتب ، ذكرها — مع كثرتها — على سبيل المثال لكتابه الذي لم يكن بدعاً منها ، ولا خارجاً عنها .

ولم يجر ابن الخطيب في « الإحاطة » على طريقة الإسناد التي اتبعها ابن عساكر والخطيب البغدادي في تاريخيهما لدمشق وبغداد . ولكنه ينقل بعض النصوص من كتب الذين سبقوه ، كما ينقل بعض النصوص من كتبه هو الأخرى ، وله في الترجمة للرجال طريقة طريفة . فهو يذكر حال المترجم له ، وأوليته — يعنى أصوله — ومشخته ، وتلاميذه ، وتصانيفه . ومولده ، ووفاته .

وجرى صاحب « الإحاطة » في ترتيب الأعلام على الحروف المبوبة المرتبة ، ولكنه بدأ بأحمد قبل إبراهيم ، لأنه راعى الحرف الأول فقط من الاسم . ولكنه راعى في ترتيب طبقات التراجم ذكر الملوك أولاً ، ويليهم الأمراء ، ثم الأعيان والكبراء ، ثم القضاة والمقرئون والعلماء ، ثم الكتّاب والشعراء ، واستمر في طوائف الرجال حتى ختم بالصوفية الفقراء « ليكون الابتداء بالملك ، والاختتام بالمسك » .

وابن الخطيب دقيق في الترجمة . يعطى الصورة الحسية للمترجم له دقيقة كالصورة الأدبية المعنوية . ولا يجعل المعانى أسيرة اللفظ والتعبير والتزويق والتنسيق . والسجع والتكلف . والقسر والتعسف . كما صنع ابن خاقان مثلاً في « قلائد العقيان » . ولكن مواتاة الأفكار له تأتية في لفظ بليغ ، وأسلوب جميل يسجع فيه أحياناً ، ويترسل فيه كثيراً ، وإن كان يميل أحياناً إلى المبالغة . كقوله في ترجمة السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل من ملوك دولة بني الأحمر في غرناطة : « هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيمة ، وأسعدهم ميلاداً وولاية ، قد جمع الله له بين حسن الصورة . واستقامة البنية . واعتدال الخلق ، وصحة الفكر ، وثقوب الذهن ، ونفوذ الإدراك . ولطافة المسائل ، وحسن التأني . وجمع له من الظرف مالم يجمع لغيره ، إلى الحلم والأناة اللذين يجهما الله . وسلامة الصدر التي هي من علامة الإيمان ، ورقة الحاشية ، وسرعة العبرة ، والتبريز في ميدان الطهارة والعفة ، إلى ضخامة التنجد ، واستحداث الآلة ، والكلف بالجهاد ، وثبات القدم ، وقوة الجأش ، ومشهور البسالة . وإيثار الرفق ، ونجح المحاولة »

ويحضرنا الآن مثال للموازنة بين أسلوب ابن خاقان وابن الخطيب في الترجمة لرجل واحد ، هو المعتمد بن عباد . فابن خاقان يقول : « كان المعتمد على الله ملكاً قمع العدا ، وجمع بين البأس والندى . وطلع على الدنيا بدر هدى . لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه . آونة يراعه وآونة سذانه . وكانت أيامه مواسم ، وغور بره بواسم . . . » وابن الخطيب يقول فيه : « كان رحمه الله فارساً شجاعاً ، بطلاً مقداماً ، شاعراً ماضياً ، مشكور السيرة في رعيته » .

ولن ندع « الإحاطة » هنا من غير إشارة إلى كتاب آخر في تراجم رجال الأندلس بحسب البلدان ، وهو كتاب « المغرب في حلى المغرب »^(١) الذي

(١) أخرجه « دار المعارف بمصر » في جزئين كبيرين بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، وقد خدمه بالفهارس النافعة المفيدة .

صنفه بالموارثة في أكثر من مائة سنة ستة من علماء الأندلس . منهم الحجازي وابن سعيد « على بن موسى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ » . والكتاب مقسم حسب كور الأندلس المقسمة إليها بلادها ، فيبدأ بكرسى المملكة وقاعدة الولاية ، ويتحدث عن بنائها وتاريخها وما يحف بها من نهر أو يحتضنها من روض ، أو يميزها من خاصية معدنية أو نباتية ، ثم يأخذ في الترجمة لرجالها طبقة بعد طبقة . وهي طبقة الأمراء ، والرؤساء ، والعلماء ، والشعراء ، واللفيف . ويدخل في طبقة اللفيف من ليس له نظم من أى صنف كان .

وقد استفاد ابن سعيد مؤلف « المغرب » من كتب الذين سبقوه إلى التأليف في هذا الباب ، كابن حيان ، وابن بشكوال ، والحميدى ، وابن الفرضى ، وابن بسام ، وابن خاقان وغيرهم ، وكثيراً ما يروى عن والده موسى بن سعيد فيقول : أخبرني والدى ، أو يقول : وجدت بخط والدى .

ولن نفوتنا الإشارة إلى كتاب يؤرخ لرجال دمشق في القرن الثالث عشر ، وهو « روض البشر » للمؤرخ الشيخ محمد جميل الشطلى مفتى الحنابلة بدمشق . وقد أتبعه بكتاب آخر في « تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجرى » . وقد ظهر الكتابان ما بين سنتي سنة ١٣٦٥ هـ ، سنة ٣٦٧١ هـ .

الفصل الرابع

حول كتابة التراجم

تراجم النساء - التراجم بين الطول والإيجاز - التراجم بين الإنصاف والتحليل - التحقيق في كتب التراجم - العناية بتاريخ الميلاد والوفاة - مصادر التراجم - ترتيب الأعلام المترجمة - ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب - تلخيص كتب التراجم وتذييلها - المعاصرة وأثرها في كتابة التراجم .

تراجم النساء

لم يسقط مؤرخو التراجم ومؤلفوها في الإسلام المرأة العربية المسلمة من حسابهم ، وفي ذلك من تقدير النظرة الإسلامية للمرأة وإنزالها منزلتها ما ينبغي الإشارة إليه في بحث خاص . والحق أن مؤلفي التراجم عندنا قد أنصفوا المرأة حين وضعوها في قوائم أعمالهم ، فأفردوا بعض النساء بالترجمة في كتب خاصة ، أو ترجموا لهن مع الرجال على السواء في كتب التراجم عامة ، فهذا أحمد بن أبي طاهر طيفور الخراساني المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وصاحب كتاب « بغداد » المشهور يؤلف كتاباً في « بلاغات النساء وطرائف كلامهن ، وملح نوادرهن ، وأخبار ذوات الرأي منهن ، وأشعارهن في الجاهلية وصدر الإسلام » وهو الكتاب الذى طبعت قطعة منه في العشر الأوائل من هذا القرن بعنوان « المنشور والمنظوم » . وهذا أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى المتوفى سنة ٥٥٧ هـ يذكر حاجي خليفة المؤرخ أن له كتاباً في « تاريخ النساء »^(١) ، وإن كان ابن خلكان لم يذكر له

(١) في « كشف الظنون » أنه توفى سنة ٥٠٧ هـ . وهو تحريف مطبعي .

هذا الكتاب في ثبوت مصنفاته . ويذكر السخاوي المؤرخ أن لابن عساكر كتاباً اسمه « معجم النسوان » ، على أن لتاج الدين علي بن أنجب البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ كتاباً في « تاريخ نساء الخلفاء . من الحرائر والإماء » .

وفي عصرنا هذا ظهر كتابان خاصان بأعلام النساء وطبقاتهن وتراجمهن ، أما الكتاب الأول فهو « الدر المنثور » ، في طبقات ربوات الحدود « للأديبة الكاتبة زينب فواز السورية مولداً وموطناً . المصرية نشأة وسكناً المتوفاة سنة ١٩١٤ م وقد ترجمت في كتابها لشهيرات النساء في القديم والحديث من العرب وغيرهن . فتجد فيه ترجمة ماجدة القرشية بجوار ترجمة ماريّا تريزا النمساوية ، وترجمة مريم الهاشمية بجوار ترجمة مارجريت ملكة إنجلترا . والأعلام في هذا الكتاب الثمين مرتبة حسب حروف المعجم ، فتبدأ بأمنة بنت وهب أم النبي عليه السلام ، وتنتهي بعد « ولادة » بنت المستكفي في حرف الواو بمن تبدأ أسماءهن بحرف « اللام ألف » .

أما الكتاب الثاني فهو « أعلام النساء » ، في عالمي العرب والإسلام « للأستاذ عمر رضا كحالة المؤرخ السوري المعاصر ، وقد رتبته على حروف المعجم ترتيباً يسهل المراجعة إلى حد كبير ، وراعى الترتيب في الاسم الأول والثاني وهكذا . وهو — على إيجاز التراجع فيه — يعد مرجعاً هاماً للباحثين في تاريخ المرأة العربية المسلمة . لأنه يختم كل ترجمة بذكر المراجع التي وردت فيها سواء أكانت مراجع قديمة أم حديثة .

ويظهر الفرق واضحاً بين هذا الكتاب وكتاب « الدر المنثور » الذي جمع بين نساء العالم كله قديماً وحديثاً ، على حين اختص هذا بنساء العرب والإسلام . كما اختص بذكر مراجع كل ترجمة حتى يسهل الرجوع إليها في مظانها . وقد تنبهت المرأة العربية أخيراً إلى واجبها نحو الترجمة والسيرة لبنات جنسها ، لعل مشاكلة الجنس بين المؤلفة والمترجم لها تكون أدعى إلى فهم النفسية . وتحليل الشخصية ، وتقدير المزايا التي قد تكون المرأة أعلم بها في أختها . ولن نذكر هنا أكثر من التمثيل بما كتبه الأنسة « م » في حياة باحثة البادية ، وبما كتبه

الدكتورة بنت الشاطئ في حياة « بطلة كربلاء » و « آمنة بنت وهب » و « نساء النبي » ، وبما كتبه الأديبة وداد سكاكيني في حياة « أمهات المؤمنين » و « رابعة العدوية » المتصوفة العاشقة ، و « نساء شهيرات من الشرق والغرب » مشتركة مع السيدة تهاضر توفيق . وبما كتبه السيدة سلمى الحفار الكزبري في كتابها « نساء متفوقات » الذي ترجمت فيه لطائفة من نساء الشرق والغرب في القديم والحديث .

أما مكان المرأة العربية المسلمة في كتب الطبقات والتراجم فهو مكان لا يكاد يخلو منه كتاب عام . ففي « معجم الأدباء » لياقوت الرومي تراجم للنساء ولو أنهن قليلات ، وفي « وفيات الأعيان » تراجم كذلك للنساء من أمثال السيدة سكينة ورابعة العدوية وأم المؤيد وغيرهن ، وفي « الوافي بالوفيات » تراجم لبعض النساء ، منهن السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وفضل الجارية . وفي « صفة الصفوة » لابن الجوزي المؤرخ تراجم كثيرة للنساء المتعبدات الناسكات ، وفي « الدرر الكامنة » لابن حجر تراجم في شهيرات القرن الثامن ، وفي عشرات وعشرات من كتب التراجم والطبقات نرى اسم المرأة العربية المسلمة بارزاً آخذاً بنصيبه كالرجل سواء بسواء .

ومن الحق أن نشير هنا — في مقام التنويه بالفضل — إلى ما صنعه مؤرخ السيرة والمغازي المشهور ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وصاحب كتاب « طبقات ابن سعد » في الاهتمام بالمرأة وإعطائها قدراً من عنايته ، وإنصافه إياها حين ترجم للنساء الصحابييات في طبقاته . فقد نبه بهذا العمل الجليل من جاء بعده من المؤرخين وكتّاب الطبقات والتراجم إلى إنصاف المرأة العربية المسلمة ، في معرض يجب فيه الإنصاف ، بلا خلاف . . .

التراجم بين الطول والإيجاز

قد تطول التراجم أو تقصر ، وقد تفيض أو تغيض تبعاً لاعتبارات كثيرة يرجع بعضها إلى كاتب الترجمة أو السيرة ، وبعضها إلى المترجم لهم . ولا شك أن طائفة المعارف والمعلومات والحقائق التي تتصل بالمترجم له تعين كثيراً على الإطالة في الترجمة له ، وعلى فسح مجال القول فيه . فهنا يجد كاتب الترجمة أيضاً واسعاً من المادة التي تطول معها الترجمة .

ولقد أتاحت بعض الشخصيات الإسلامية الهامة الغنية لكتاب التراجم أن يطيلوا في تراجمهم تبعاً لأهميتهم وغزارة المادة فيهم . فالشاعر أبو العلاء المعري قد أتاح للمؤرخ ياقوت الرومي أن يترجم له في أكثر من مائة وعشر صفحات ، وكذلك كانت حياة أسامة بن منقذ الأمير الفارس العربي المجاهد مادة خصبة لياقوت ، فكتب في ترجمته ستين صفحة من كتابه « معجم الأدباء » ، على حين أنه ترجم لبعض الرجال في أربعة أسطر ، ولقد بلغ الصاحب بن عباد القمة عند ياقوت حين ترجم له في مائة وخمسين صفحة ، وهو قدر أعان عليه ما دار حول الرجل من ضجة . وما أثاره في حياته من خصوصيات ومنازعات . وما كان في شخصيته من متناقضات حملت كاتباً كبيراً كأبي حيان التوحيدي على أن يصور غروره تصويراً كان فيه من التحامل أكثر مما فيه من النصفة لأديب من كبار أدباء العربية .

على أن كاتب الترجمة — من ناحية أخرى — قد يطيل فيها مراعاة لجانب المترجم له إذا كان حياً معاصراً ، وقد يكون لاعتبار النفوذ ، ورعاية الزلفى ، وقصد التقرب دخل كبير في مقدار الترجمة والسيرة ، بل قد يصل أحياناً إلى مراعاة المجاملة والتحيز .

ولا نستطيع أن نصف كاتباً كبيراً كلسان الدين بن الخطيب المؤرخ

الأندلسي بالتحيز حين ترجم للسلطان محمد يوسف بن إسماعيل ملك غرناطة وأمير المسلمين لعهد ابن الخطيب في الأندلس في القرن الثامن الهجري ، ولكنه بلا شك قد جامل سلطانه وملكه حين ترجم له في « الإحاطة » في قرابة ستين صفحة . وجامله أكثر حين أفاض عليه من بالغ الأوصاف وبلغها ما تتضاءل معه الصفات . كقوله فيه : « أشهر شهرة ذكاء في الضحى ، مستولياً على المدى . بالغاً بالانتساب إلى سعد بن عباد عنان السما . وكفى بذلك فخراً عند من سدم ورأى » .

والحق أن لسان الدين بن الخطيب كان من صنائع ملوك بني الأحمر في غرناطة ، بل كان وزيراً للسلطان محمد كما كان وزيراً لأبيه من قبل ، فلا غرابة إذا بالغ في الصفة ، وأغرق في المدح حين يترجم ويؤرخ ، إلا أنه كان مبالغاً دائماً في الترجمة لمعاصريه وللسابقين على حد سواء ، وذلك ملحوظ في تراجمه في « الإحاطة » .

ولقد نبه المؤرخ السخاوي في كتابه « الإعلان بالتوبيخ . لمن ذم التاريخ » إلى ضرورة التعبير في الترجمة للرجال « بعبارات لا تزيد عنه ولا تنقص » . كما اشترط في كاتب الترجمة أو السيرة : « أن لا يغلبه الهوى ، فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، وذلك بأن يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك معه طريق الإنصاف ، وإلا فالتجرد عن الهوى عزيز » .

التراجم بين الإنصاف والتحامل

ولاشك أن كلام المؤرخ السخاوي في الإنصاف والتجرد عن الهوى جميل وواجب أن يكون نصب عيني مؤرخي السير والتراجم حين يكتبون ، فإن الحقيقة العلمية تضع متى تحيز المؤرخ أو تحامل أو جامل . ومن الصعب على المترجم المنصف النزيه أن يجرد نفسه تماماً من عوامل التحيز ، والتجرد ، والهوى ، وهي آفة

المرء دائماً فيما يأتي أو يدع . ولعل السخاوى نفسه لم يأخذ نفسه بالإنصاف الذى دعا إليه حين ألف كتابه الشهير « الضوء اللامع » ، فى أعيان القرن التاسع » ، فقد دفعته عوامل المعاصرة وما يدور حولها من المنافسة والحسد بين الرجال إلى أن يتحامل على كثير من علماء عصره حين ترجم لهم ، ولم يكن منصفاً لهم ، ولا مالمكاً زمام هواه حين وقع فيهم بما يستغرب صدورهم من مؤرخ مثله ، وضع للمؤرخين مناهج وقواعد فى كتابه القيم « الإعلان بالتوبيخ » ، لمن ذم التاريخ » . فقد كانت بينه وبين الإمام السيوطى المؤرخ الكبير المعاصر له جفوة . وحدث بينهما ما يحدث بين أبناء الصنعة الواحدة ، فنسى السخاوى مذهبه فى الإنصاف والتجرد وقهر الهوى . وأطال لسانه فى السيوطى وهو يترجم له فى الجزء الرابع من « الضوء اللامع » ، ورماه بالكذب على الشيوخ ، واختلاس المؤلفات . وضعف الكفاية فى التدريس ، وغمزته كثيراً ، بل تعرض لبعض خصوصياته كقوله فيه : « ولم أزل أعرفه بالهوس ، ومزيد الترفع حتى على أمه ، بحيث كانت تزيد فى التشكى منه » . ولو أن السخاوى المؤرخ المترجم للرجال بعد عن التحامل على رجال عصره لكان مثلاً لكتاب التراجم على النحو الذى اقترحه هو فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ » ، إلا أن هناك عاملاً نفسياً لا يجدر إغفاله هنا ، فقد كان السخاوى شديد التحامل حين يترجم لرجال التاريخ من أهل عصره ، وأعله كان يريد أن يتفرد وحده بأنه هو مؤرخ زمانه ، فحاول النيل من كل مؤرخ ظهر فى عصره . أو التنقص من قدره . ولعل غمزاته فى معاصره المقرئى المؤرخ تفسر لنا هذه الناحية ، فقد اتهمه بأنه سرق كتابه المشهور فى خطط مصر والقاهرة من مسودة للمؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى « كان قد تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها ، فبيضاها التقي المقرئى ونسبها لنفسه مع زيادات » ، ثم غمزته مرة أخرى بقوله : « وصارت له فيه — يعنى التاريخ — جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى كما سبق فى ترجمته . فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » . ثم زاد فى التحامل فنسب إليه الكذب فى بعض أخباره

على أن رأى المؤرخ ابن حجر — شيخ المؤرخ السخاوى — فى خطط المقرئى يخالف رأى تلميذه ، فقد عرف الشيخ بالإنصاف والتجرد من الهوى ، ولهذا لم يتعرض لحكاية سطو المقرئى على الأوحدى فى كتابه « الخطط » وهو يترجم للمقرئى فى معجمه ، بل قال فيه : « له النظم الفائق ، والنثر الرائق . والتصانيف الباهرة ، وخصوصاً فى تاريخ القاهرة ، فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها . وترجم أعيانها » .

والسخاوى يخطئ فى قصة سطو المقرئى على الأوحدى ، فتارة يعزو الرواية إلى شيخه ابن حجر . وتارة يذكرها كأنها من عنده هو . وقد رأيت رأى ابن حجر فى المقرئى . فلم يبق إلا أن نستظهر من هذا الحيط تحامل السخاوى الذى يظهر لنا أيضاً فى تراجمه للمؤرخين من أهل عصره : ابن تغرى بردى ، والبقاعى ، وحتى ابن خلدون الذى لم يسلم من لومه والتعريض به .

وما أبشع التحامل بين المؤرخين وكتاب السير والتراجم حين يختلط فيه الأمر على القارئ الذى يبغي الوصول إلى الحقيقة ، فقد يكون المترجمون على التقيضين حين يترجمون لرجل واحد . ويحضرنا الآن مثال من ذلك ، فبعد الرحمن بن على التفتنى القاهرى كان من علماء مصر فى المائة التاسعة . ولكن آراء المؤرخين فيه تختلف باختلاف التجرد أو الهوى والمصلحة والعوامل النفسية . فالمؤرخ ابن حجر يقول عنه : « وكان حسن العشرة . كثير العصبية لأصحابه . عارفاً بأمور الدنيا وبمخالطة أهلها » ثم قال عنه مرة أخرى : « وكان حسن الأخلاق . كثير الاحتمال ، شديد السطوة . إذا غضب لا يطاق ، وإذا رضى لا يكاد يوجد له نظير » . ثم قال عنه فى كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » وهو فى تراجم القضاة بمصر : « إنه سار فى القضاء سيرة محدودة ، وخالق الناس بخلق حسن ، مع الصيانة ، والإفضال ، والشهامة ، والإكباب على العلم » . ولكن اسمع ما يقوله فيه المؤرخ العيني بدر الدين المتوفى سنة ٨٥٥ هـ وهو معاصره : « كان أبوه عامياً من الزراع فى « نفهنة » والمتسبين بها ، فهرب ابنه منه بعد بلوغه إلى القاهرة . وخدم بها حماراً . . . وحصل له بعض تميز بين الناس

فناب في القضاء ، واتصل ببعض الأمراء ، فتمول . فبطر وطمى . فسعى في قضاء الخنفية بالرشى والبرطيل . . . وكان صاحب غرض فاسد ، يبذل أشياء لأغراضه الفاسدة . . . ولم يعهد أنه درس كتاباً كاملاً ولا كتب بيده كتاباً كاملاً ، ولا تأليفاً ولا جمعاً . . . وكان في الدعوى كثير الهذيان والفشارات . . . »

وإذا رجعنا إلى التاريخ نستخبره سر تحامل المؤرخ العيني على التفهني أفادنا أن الاثنين كانت بينهما منافسة في الصنعة والمشيخة . وكان التفهني محظوظاً عند أمراء مصر ، وخاصة بعد أن تزوج ابنة الشهاب المحلى كبير تجار مصر ، فعظم بين الناس قدره . ولما تولى مشيخة المؤيدية سعى عليه المؤرخ العيني حتى صرف به عنه . وكان هو والعيني يتعاوران القضاء والمشيخة تبعاً لنفوذهما عند أولى الأمر . فحملت المنافسة والمنصب على أن يكون رأى العيني في صاحبه كما رأينا .

التحقيق عند كتاب التراجم

إن التحقيق ، ومعارضة الروايات بعضها ببعض . وتحري الحقيقة هي من شروط المترجمين وكتاب السير ، كما هي من شروط المؤرخين ، فالتأريخ لحياة الأفراد والجماعات لا يعدو أن يكون نوعاً من التأريخ العام . ويحضرنا من كتاب التراجم مثال رائع يتجلى في ياقوت الحموى صاحب « معجم الأدباء » الذي كان يحقق المسائل ويبدى فيها بالرأى الحسن ، ولا يجزم في مسألة بما لم ينته إليه يقينه ، وهنا يستعمل : أظن وأحسب وما شابهها من صيغ الظن . فإذا كان واثقاً من مسألة قال : والذي أعلمه ، والذي أعرفه ، وما مائلها من صيغ اليقين . فيقول في ترجمة المروى : (« المؤدب صاحب كتاب « غريب القرآن والحديث » ، والسابق إلى الجمع بينهما في علمنا » ، ويقول في ترجمة إبراهيم الحصرى القيروانى : « والذي أعرفه أنا من تصانيفه كتاب « زهر الآداب ») .

ومن تحقيق ياقوت الروى ما ذكره في ترجمته لإبراهيم بن ممشاذ المتوكلى .

فهناك روايتان : إحداهما أنه تسخط صحبة أولاد الخليفة العباسى المتوكل ، فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث الصفار الخارج على الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث . والرواية الأخرى تقول : إن المعتمد الخليفة العباسى نفسه وابن المتوكل هو الذى أنفذه رسولا عنه وعن الموفق إلى يعقوب بن الليث ، فنحن هنا أمام روايتين تقول إحداهما إن المترجم له ترك الخليفة ساخطاً ، وتقول الثانية إنه تركه رسولا منفذاً من قبله . وهنا لا يسكت ياقوت المؤرخ الحق ، ولا يكتفى بذكر الروايتين كما يصنع كثير من المؤرخين والمترجمين . ولكنه يعلق قائلاً : « والأولى من هاتين الروايتين أصح في أنه هو الذى لحق بيعقوب ، يدل على ذلك أنه كتب من عند يعقوب إلى المعتمد :

أنا ابن الأكارم من نسل جم وحائز إرث مملوك العجم
فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم ! »

...

وقد تظل بعض المسائل دهرًا طويلاً كأنها حقيقة تاريخية ، إلى أن يجىء من يصححها ويبين الخطأ فيها بشاهد من التاريخ أو بدليل قوى من الواقع . لقد زعم سهيل بن ذكوان أنه روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، وأنه لقيها بمدينة واسط . مع أن السيدة عائشة ماتت سنة ٥٨ هـ والحجاج بنى مدينة واسط بعد ذلك بدهر . فكيف يلتقى بها في مدينة كانت حين وفاة عائشة لا تزال سرّاً في ضمير الغيب ؟ . ولقد صحح السخاوى هذا الزعم ، ولعله نقله عن بعض شيوخه وخاصة المؤرخ المحدث الحافظ ابن حجر .

وقد يجمع مؤرخو السير والتراجم على رأى معين في مسألة معينة ، وينقلها بعضهم عن بعض إلى أن يظهر من الدلائل أو الوثائق ما يصحح الرأى فيها . فقد أجمع مترجمو حياة الشاعر الإنجليزى شيللى « ١٨٢٢ م » - وفيهم أندريه موروا أحدث المترجمين له - على أن زوجته الأولى هاربيت وستبروك كانت

موضع شكوك من ناحية السلوك - إلى أن عثر بأخرة من الزمان في أول العقد الثالث من القرن العشرين على رسائل من الشاعر شيللى إلى زوجته هاربيت ، تثبت براءتها مما وقع فيه المؤرخون .

العناية بتواريخ الميلاد والوفاة

يبدو اهتمام كتاب التراجم ومؤرخى المسلمين بالوفيات أكثر من المواليد ، من هذا العدد الكثير من الكتب التى ألقت على الوفاة وضبطها وتحققها . ويكفى أن يهتم ابن خلكان المؤرخ بمسألة وفيات الرجال فيجعل عنوان كتابه الجليل « وفيات الأعيان » ، وهو يوحى بهذا العنوان إلى الغرض الأهم من كتابه ، وهو حفظ الوفيات حتى لا تضيع على الزمان .

وقد حاول ابن خلكان قدر جهده أن يؤرخ لميلاد المترجم لهم ، واشترط ذلك بالقدرة عليه . فإن الميلاد أصعب ضبطاً وأعسر تقييداً من الوفاة . لأن الشخص حين يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه ولا ما يصير إليه مستقبل أمره ، فلا تقوم هناك حاجة إلى حفظ تاريخ مولده ، فإذا مات تكون شهرته أو مكانته أو علمه أو أدبه دالاً عليه ومنهياً إليه ، فيحفظ المؤرخون تاريخ وفاته .

ولقد حفظ لنا ابن خلكان كثيراً من موالد الأعيان المترجم لهم ، وقد يؤرخ الميلاد باليوم من الأسبوع والتاريخ من الشهر والسنة . فإذا عجز عن ذلك أرخ الميلاد بحادثة أو خلافة ، كما فعل في ترجمته لأبى بكر بن عبدالرحمن بن مخزوم القرشى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، فإنه ذكر أنه ولد في خلافة عمر بن الخطاب . وقد لفت إهمال المؤرخين وكتاب التراجم للوفيات نظر المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي « ٧٤٨ هـ » فقال في مقدمة كتابه « تاريخ الإسلام » ، وطبقات المشاهير والأعلام : « ولم يعتن القدماء بضبط الوفيات كما ينبغي ، بل اتكلموا على حفظهم . فذهبت وفيات خلق من الأعيان من الصحابة ومن تبعهم إلى قريب زمان أبى عبد الله الشافعى ، فكنتنا أسماءهم على الطبقات

تقريباً . ثم اعتنى المتأخرون بضبط وفيات العلماء وغيرهم ، حتى ضبطوا جماعة فيهم جهالة بالنسبة إلى معرفتنا لهم ، فلهذا حفظت وفيات خلق من المجهولين ، وجهلت وفيات أئمة من المعروفين » .

وعلى الرغم من تحقيق المؤرخين لوفيات الرجال فقد وقع في بعضها خلط واضطراب وروايات متعددة . تحتاج في تحقيقها إلى كثير من الجهد والنظر ومعارضة الأصول ومقابلة الأحداث . فابن القاص الطبرى الفقيه الشافعى قيل في وفاته إنه مات سنة ٣٣٥ هـ ، وقيل سنة ٣٣٦ هـ ، والثعلبى المفسر المشهور تختلف الأقوال في وفاته بين سنة ٤٢٧ هـ . ٤٣٧ هـ ، وابن الراوندى عالم الكلام المشهور يقال إنه مات سنة ٢٤٥ هـ وسنة ٢٥٠ هـ . وأحمد بن فارس الإمام اللغوى الكبير قيل إنه توفي سنة ٣٧٥ هـ وسنة ٣٩٠ هـ ، وأبو العتاهية الشاعر المشهور قيل إنه توفي سنة ٢١١ هـ وسنة ٢١٣ هـ ، وبشار بن برد تختلف وفاته بين ١٦٧ هـ ، ١٦٨ هـ ، وابن رشيق القيروانى صاحب كتاب « العمدة » ، في صناعة الشعر ونقده « تختلف الأقوال في وفاته بين ٤٥٦ هـ . ٤٦٣ هـ .

ولا يقف المؤرخ أو كاتب الترجمة صامتاً أمام هذا الاختلاف في سنى الوفاة للمترجم لهم ، بل لابد أن يحققها قدر جهده وعلمه . ولا بد أن يبدي فيها رأياً . وقد لا يكون الرأى مستنداً إلى دليل أكثر من ثقة المترجم في صاحب القول الذى أخذ به . كما صنع ابن خلكان في تاريخ وفاة ابن رشيق ، فإنه آثر رواية من قال إنه توفي ٤٦٣ هـ ، وقال عنها إنها أصح من الرواية الثانية التى وجدها بخط بعض الفضلاء .

إلا أن الترجيح بالدليل المادى يكون أحسن وأليق بعمل المترجم المحقق . فقد أرخ جماعة وفاة مجمع بن يعقوب بن مجمع بن زيد بن جارية الأنصارى بأنها كانت سنة ١٦٠ هـ ، فلم يقبل الذهبي المؤرخ هذا وتوقف فيه ، لأن قتيبة كان ممن روى عن مجمع ، وكانت رحلته إليه بعد سنة ١٧٠ هـ ، فلا بد أن تكون وفاة

مجمع بعد هذا التاريخ . ولكن لابد لإتمام التحقيق من خطوة أخرى . وهي تحقيق رحلة قتيبة ، والتأكد تاريخياً من أنها كانت : بعد عام سنة ١٧٠ هـ .

مصادر الترجمة

يرجع كتاب التراجم والسير إلى مصادر ومراجع يأخذون منها مجموعة المعارف والمعلومات التي يشتونها في تاريخ المترجم لهم . وقد تبني هذه المعارف على الاتصال الشخصي بالمترجم له . كما في ترجمة بهاء الدين بن شداد المؤرخ « ٦٣٢ هـ » لصالح الدين الأيوبي حينما كتب سيرته « النوادر السلطانية . والحاسن اليوسيفية » . و ترجمة أبي النصر العتبي المؤرخ « ٤٢٧ هـ » للسلطان محمود الغزنوي في كتابه المعروف باسم « البيهقي » ، وكما في ترجمة لسان الدين بن الخطيب للسلطان محمد ابن يوسف ملك غرناطة . وكان ابن الخطيب وزيراً له ولوالده من قبله .

وقد يستمد كاتب التراجم معارفه عن طريق السماع ، كما جرى عليه الشأن في كثير من كتب التراجم ، فيتلقى المؤلف أخباره سامعاً من هذا . وناقلاً عن ذاك . كما صنع ابن خلكان حين نقل عن أفواه الأئمة المعاصرين له . وكما صنع من قبل أبو عبد الله الحشني المتوفى سنة ٣٦١ هـ حين ترجم للقضاة الأندلسيين في كتابه المشهور « قضاة قرطبة » . فهو يقص أخبار المترجم له قائلاً : « وسمعت بعض أهل العلم يحكي » أو قائلاً : « حكى لي عنه بعض إخواني » ، أو كما صنع ابن سعيد المغربي حين يسمع من كثير من الناس وفيهم والده المؤرخ الأديب ، فيقول : أخبرني والدي ، أو قال والدي ، أو غير ذلك من العبارات . أما ذكر الأخبار عن طريق الإسناد فكان سبيل كتاب الطبقات والسير

والتراجم زمناً طويلاً ، نجد ذلك في « طبقات ابن سعد » المتوفى سنة ٢٣٠ هـ لأنه كان من أوائل الذين ألفوا في السير والمغازي والرجال ، فجرى في الإسناد على طريقة أهل الحديث ، ونجد ذلك في كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، ونجده في « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي

المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ونجده في كتاب « المنتظم » لابن الجوزي ، وفي « تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » للذهبي « ٧٤٨ هـ » وغيرها مما لا سبيل إلى حصره . ولكن المؤرخ ابن خلكان لم يجر في « وفيات الأعيان » على طريقة الإسناد هذه ، لأن صفة أهل الحديث وطريقتهم لم تغلب عليه كما غلبت على الطبري المؤرخ ، الذي ازدحم كتابه بأسماء رجال السند إلى حد يكاد يضل معه الباحث . بقي من مصادر الترجمة أن نشير إلى مصدر يعول عليه كثيراً في تقييد العلوم والأخبار والآثار والمعارف البشرية عامة ، وهو مصدر الكتب التي ألفت في الموضوع الذي يكتب فيه المصنف ، فترجم طبقات المحدثين والرواة محتاج إلى أن يطلع على كل ما كتب قبله في هذا الباب ، حتى لا يفوته شيء مما كتبه الأوائل . وبديهي أن أوائل المؤلفين في الإسلام اعتمدوا على الروايات لا غير ، لأن العلم لم يكن مدوناً حينذاك ، وإنما كان محفوظاً في الصدور ينقله راو عن راو . وأخذت الحاجة إلى الاستعانة بالكتب مراجع ومصادر تزداد وتتسع تبعاً لتقدم الزمن وكثرة المصنفات في الموضوع الواحد . وصار كتاب التراجم والسير - كغيرهم من المؤلفين - لا يجدون حرجاً في أن يشيروا إلى مصادرهم في مقدمات كتبهم أو في أي موضع آخر من الكتاب . والغالب أن مصادر الترجمة كانت تذكر في المقدمة ، ولكن ابن خلكان لم يذكر لنا في مقدمة « وفيات الأعيان » أسماء الكتب التي أخذ عنها ، واستقى منها ، وإنما اكتفى أن يقول : « فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن ، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده في كتاب » .

أما ياقوت الحموي « ٦٢٦ هـ » فقد اعتنى بذكر مصادرهم في مقدمة كتابه « معجم الأدباء » ، كما ذكر طائفة من كتب التراجم وطبقات النحاة لم تقع له . وهو يصرح عند كل كتاب أفاد منه ورجع إليه بأنه « نقل فوائده إلى كتابه » ، ولم يكتف ياقوت بذكر المراجع والمصادر ، بل وقف منها موقف الناقد الصيرفي ، يكشف عن أقدارها ، ويبين قيمتها ، فيقول عن كتاب « شجرة الذهب ،

في أخبار أهل الأدب « اعلى بن فضال المجاشعي : « وقع إلى منه شيء ، فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه قليل الفائدة . لكونه لا يعنى بالأخبار ، ولا يعنى بالوفيات والأعمار » ، ثم يقول عن كتاب « طبقات النحويين واللغويين » للزبيدي « ٣٧٩ هـ » : « ثم جمع في ذلك أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلي الزبيدي كتاباً لم يقصر فيه . وهو أكثر هذه الكتب فوائد ، وأكثرها تراجم وفرائد ، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب » .

ولقد صرح ابن حجر العسقلاني مؤرخ مصر في القرن التاسع بأسماء الكتب التي استمد منها كتابه « الدرر الكامنة » في أعيان المائة الثامنة » ، ومنها « أعيان النصر » للصفدي ، و « مجاني العصر » لأبي حيان ، و « ذهبية العصر » لابن فضل الله العمري ، و « الخطط » للمقريزي . و « الإحاطة » للوزير الأندلسي لسان الدين بن الخطيب ، و « تاريخ ابن خلدون » وغيرها . ومن هذه المراجع ما لا يزال مخطوطاً إلى اليوم .

ومن ذكروا مصادرهم في صدور كتبهم المؤرخ شمس الدين الذهبي ، فقد قال في المقدمة إنه طالع من الكتب على مؤلفه مصنفات كثيرة ، سرد منها نحواً من أربعين كتاباً من أمهات كتب التاريخ والسير والطبقات ، وأكثرها مخطوط أو لا وجود له اليوم .

ولما رغب نجم الدين الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ هـ في كتابة تراجم لرجال المائة العاشرة لم يصادف أمامه إلا قلة من الكتب لا تنفي بحاجة ولا تسد النقص ، وأغلبها لم يصل في تاريخ رجال القرن العاشر إلا إلى نصفه ، فاعتمد على ما نقله من خطوط المشايخ أو خط من يوثق به من العلماء ، واستند إلى ما تلقاه من الأفواه ، وأخذ بالسماح حتى كملت له مادة كتابه « الكواكب السائرة » ، بأعيان المائة العاشرة » .

ولقد عدل القفطي المؤرخ وصاحب التراجم « توفي سنة ٦٤٦ هـ » عن طريقة ذكر المصادر والمراجع في مقدمة الكتاب إلى متن الكتاب نفسه . وهي طريقة

أخرى لتسجيل المصادر . ففي خلال الترجمة لعالم لغوى أو أديب يقول مثلاً : « وقال الزبيدي » . ثم يسوق النص الذي نقله عن كتاب طبقات النحويين للزبيدي ، أو يقول مثلاً : « وقال محمد بن إسحاق النديم في كتابه » ويقصد كتاب « الفهرست لابن النديم » وهكذا .

وقد جرت عادة كتاب التراجم والسير في زماننا هذا أن يذكروا ثبناً خاصاً بأسماء المصادر والمراجع في مفتتح الكتاب أو في خاتمته ، فإذا ما عرض في صلب الكتاب ذكر لحادثة تستحق الإشارة إلى مأخذها ذكره في هامش الكتاب . حتى تكون الحادثة أو الواقعة ألصق بمظننها ، وأقرب إلى مصدرها . على أن هناك بعض الآثار المادية والمخلفات التي قد تعين المترجم وكاتب السيرة على الترجمة أو على جلاء الشخصية التي يريد الكتابة عنها ، أو على تصحيح بعض الأفكار عنها . وتلعب « الرسائل الخاصة » دوراً كبيراً في هذا ، كما في رسائل الآنسة مي زيادة التي نشرت في بيروت سنة ١٩٥١ ، وهي تلقى ضوءاً على بعض النواحي العاطفية من حياة تلك الأديبة العربية الكبيرة ، وكما في رسائل مصطفى صادق الرافعي إلى صديقه الشيخ محمود أبي رية ، وكما في رسائل الشيخ إبراهيم اليازجي التي نشرها يوسف توما البستاني .

ترتيب الأعلام المترجمة

إذا استعرضنا كتب التراجم والطبقات في الأدب العربي رأيناها لا تجري في ترتيب الأعلام على نهج واحد ، فكل مؤلف يختار الطريقة التي يجدها أوفى بالغرض . وأسهل في التناول ، وأدل على القصد بأدنى جهد .

وقد جرى أكثرهم على ترتيب الأعلام حسب حروف المعجم ، كما صنع ابن خلكان في « الوفيات » ، وياقوت في « معجم الأدباء » ، وابن حجر العسقلاني في « الدرر الكامنة » و « الإصابة » ، والسخاوي في « الضوء اللامع » ، ونجم الدين الغزي في « الكواكب السائرة » ، والقفطي في « إنباء الرواة » .

ولكن الذين اتبعوا طريقة الترتيب المعجمي للأعلام لم يجرؤوا على خطوة واحدة أيضاً ، فبعضهم راعى الترتيب الهجائي عامة في جميع الأعلام ، كما صنع

ابن خلكان في « الوفيات » وياقوت الرومي في « معجم الأدباء » . وبعضهم بدأ بذكر أسماء المحمدين تيمناً بالاسم النبوي الكريم ، ثم راعى بعد ذلك الترتيب الهجائي . وبعضهم بدأ بالمحمدين أولاً ، فالأحمدين ثانياً ، ثم أتبع ذلك بذكر من اسمه إبراهيم ، وبعد ذلك جرى على ترتيب حروف المعجم .

ومن بدأ بالمحمدين الخطيب البغدادي صاحب كتاب « تاريخ بغداد » . والسيوطي صاحب كتاب « بغية الوعاة » ، في طبقات النحاة ، والذوي صاحب كتاب « تهذيب الأسماء واللغات » ، والغزالي صاحب « الكواكب السائرة » . وصلاح الدين الصفدي صاحب « الوافي بالوفيات » الذي طبعت منه إلى الآن ثلاثة أجزاء لا غير . بعناية المستشرق : س . ديدرنغ .

وفي طريقة الترتيب بالأعلام حسب حروف المعجم صعوبة يصادفها المترددون كثيراً على المراجع العربية ، فإن الأعلام المترجمة مرتبة بحسب الأسماء لا بحسب شهرة أصحابها أو كنانهم ، فلا بد لطالب الكشف عن ترجمة أن يكون عالماً بالاسم الأول للمترجم ، ولا تنفع معرفته بالشهرة أو الكنية أو اللقب ، لأنها لم تدخل في حساب كتاب التراجم .

وهل يخطر على بال الباحث أو الطالب أن الشاعر « الشاب الظريف » يبحث عنه في مادة محمد لأن اسمه محمد بن سليمان ؟ وأن السيوطي المؤرخ يكشف عنه في حرف العين لأن اسمه عبد الرحمن بن أبي بكر ؟ وأن المقرئ المؤرخ المشهور يبحث عنه في حرف الهمزة لأن اسمه أحمد بن علي ؟ وأن أبا نعيم الأصفهاني صاحب « حلية الأولياء » يبحث عنه في مادة أحمد ؟ وأن الإمام الشافعي رضي الله عنه يبحث عنه في حرف الميم لأن اسمه محمد بن إدريس ؟ وأن « القاضي الفاضل » إمام الترتيب في مصر في القرن السادس يبحث عنه في حرف العين لأن اسمه عبد الرحيم ؟

الحق أنها صعوبة تصعب كثيراً من الجهد والوقت في البحث عن ترجمة

علم معين ، إلا إذا ذللها معرفة وثيقة بالرجال ، وكثرة الترداد على كتب المراجع والتراجم ، أو الرجوع إلى معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلي من أدباء عصرنا وشعرائه ، فإنه يذكر العلم بشهرته وألقبه في باب من حروف الهجاء ثم يحيل على الاسم الحقيقي الذي تجيء الترجمة تحته . ففي البحث عن « الحصري » مثلاً يجيء به في حرف الحاء والصاد — وهو ترتيبه بحسب الشهرة — ثم يحيلك على الترجمة في موضعها فيقول : انظر : إبراهيم بن علي . وفي البحث عن الثعالبي اللغوي يجيء به في حرف الثاء والعين ، ثم يحيلك على ترجمته في موضعها فيقول : انظر عبد الملك بن محمد .

وهكذا ذلل معجم « الأعلام » للأستاذ خير الدين الزركلي صعوبة طالما شكها منها الباحثون في كتب التراجم وتاريخ الرجال . فالله يجزيه أحسن الجزاء .

وهناك من كتاب التراجم من ترك طريقة ترتيب الأسماء حسب الحروف إلى طريقة الترتيب حسب سني الوفاة ، كما صنع ابن رجب المتوفى سنة ٧٩٥ هـ في ذيله على طبقات الحنابلة ، وقد بدأ فيه بتراجم وفيات المائة الخامسة من سنة ٤٦٠ هـ إلى ٥٠٠ هـ . واختار سنة ٤٦٠ هـ بداية للوفيات لأنها السنة التي انتهى عندها ابن أبي يعلى الفراء المتوفى سنة ٥٢٦ هـ في كتابه « طبقات الحنابلة » . ومن هنا كان كتاب ابن رجب ذيلًا على كتاب ابن أبي يعلى . وبالطبع اختفت المعجمية في كتاب ابن رجب ما دام الترتيب على وفق سني الوفاة . إلا أنه راعى الترتيب المعجمي أحياناً في ذكر وفيات كل سنة ، وإن كان لم يجر في ذلك على نهج واضح موحد . كما أنه لم يجر في ترتيب السنين على التسلسل أحياناً ، ففي سنة ٤٨٨ هـ وبعد أن فرغ من ذكر وفياتها . وانتقل إلى وفيات ما بعدها من السنين ، عاد ثانية إلى وفيات سنة ٤٨٨ هـ . ولعل الذنب في هذا ذنب الذي نسخ له كتابه ، فلم تجيء وفيات سنة ٤٨٨ هـ في موضعها جملة واحدة .

ولعل أجدد ما يصح به الاستشهاد من كتب التراجم على طريقة الترجمة

حسب سني الوفاة كتاب « شذرات الذهب . في أخبار من ذهب » لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ . ففي آخر كل سنة هجرية من بداية السنة الأولى لهجرة الرسول عليه السلام إلى سنة ١٠٠٠ من الهجرة . يذكر المؤلف أسماء من توفي في تلك السنة من الأعلام والمشهورين في كل فن وعلم . إلا يستثنى من ذلك خليفة ولا أميراً ولا وزيراً ولا قائداً ولا عاملاً ولا قاضياً ولا راوياً ولا فقيهاً ولا أديباً ولا شاعراً . ولا ذا شأن في التاريخ الإسلامي خلال ألف عام . وقد يذكر تواريخ ميلاد أصحاب الوفيات . ثم يترجم لهم تراجم أغلبها قصير موجز . إلا أنه يذكر من أحوال المترجم لهم وآثارهم وأشعارهم وأخبارهم وأسماء مصنفاتهم ما يحمد ذكره في مقام لا يتسع لتطويل ، ولا ينبسط لتفصيل

ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب

إن كثيراً من أسماء الأعلام تتشابه في الخط أو الحروف المتشابهة . كالجم والحاء والخاء ، والدال والذال ، والسين والشين ، فإذا أهمل أو نسي نقط هذه الحروف فإن الأمر يختلط على القارئ فلا يدري إذا كانت حقيقة العلم « مزاحم » أو « مزاجم » ، و « مسهر » أو « مشهر » ، و « نصير » أو « نصير » ، وقد سمى فعلاً بهذه الأسماء واشتهر منها جماعة ، فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وقد يتحد الاسمان في الحروف تماماً ولكن الضبط بالشكل يختلف في واحد عنه في الآخر . فهناك « عمارة » بضم العين و « عمارة » بكسرها ، وهناك « عتيق » بفتح العين و « عتيق » بضمها على صيغة التصغير ، وهناك « عقيل » بفتح العين ، و « عقيل » بضمها ، وهناك مئات من الأعلام على هذا النحو الذي لا بد له من ضابط يضبطه . فما السبيل إلى تحقيق هذا ؟

وهناك أسماء أعلام لا يستقيم النطق بها صحيحة إلا إذا ضبطت بالشكل أو بالحركات مثل القاضي « ابن ممتاى » الوزير المصرى في عهد الأيوبيين ،

ومثل « ابن حموية » الدمشقي من رجال القرن السابع الهجرى ، ومثل « ابن راهويه » أو « راهويه » أحد الأئمة الحفاظ في القرن الثالث الهجرى ، ومثل الأديب اللغوى « ابن السيد البطلاني » شارح كتاب « أدب الكتاب » والمتوفى سنة ٥٢١ هـ . وغير هذه الأسماء التي لا بد من ضبطها في كتب السير والتراجم والتاريخ حتى ينطق بها على وجه صحيح .

إن المؤلفين المسلمين لم يسكنوا أمام هذه المشكلة التي كادت تحدث لبساً كبيراً وخطأ فاحشاً بين الأعلام . فنصبوا همهم لتحقيقها وضبطها وتوضيح الفروق بينها في كتب خاصة قائمة بذاتها . تكون مرجعاً للتحقيق والضبط .

ومن أوائل المؤلفين في هذا الباب الذى يدخل في كتب التراجم من أوسع أبوابه الإمام الحسن بن بشر الآمدى « ٣٧٠ هـ » فقد صنف كتابه الجليل : « المؤلف والمختلف » ليكون ضابطاً لأسماء الشعراء وكناهم وألقابهم ، وأضاف إليه بعض أخبارهم وأشعارهم . فتجد فيه من الشعراء من اسمه « الحصين » بالصاد المهملة ، و « الحصين » بالصاد المعجمة — المنقوطة — ومن الشعراء من اسمه « حباب » مثل حباب بن عمار القائل :

يا نصر إنك لو أبصرت مشهدنا أيقنت أن إلينا ينهى الكرم
نمشى إلى الموت مشياً فيه خطرة في باحة الموت حتى تنجلي الظلم

ومنهم من اسمه « حباب » بالحاء المعجمة مثل حباب بن عدى الشاعر الفارس القائل :

وأرى بنفسى في فروج كثيرة وليس لأمر حمه الله صارف

والحق أن كتاب الآمدى هذا هو معجم نفيس لتراجم الشعراء حتى القرن الرابع الهجرى ، وضبط أسمائهم وذكر المتشابه منها مثل امرئ القيس بن حجر الكندى الذى نعرفه جميعاً بمعلقته التي أولها : « قفا نبك من ذكرى حبيب

ومنزل « ، ومثل امرئ القيس بن عابس بن المنذر الذي أدرك الإسلام ووفد على النبي عليه السلام ، وأسلم ، ولم يرتد في أيام الخليفة أبي بكر ، وباهى بذلك قائلاً :

فلست مبدلاً بالله رباً ولا متبدلاً بالسلم ديناً

ومثل امرئ القيس بن بكر المعروف بالذائد . وقد عدّ لنا الآمدى تسعة من هؤلاء المراقسة وترجم لهم في إيجاز ، ونسبهم إلى قبائلهم وذكر بعض شعرهم . ومن الكتب النافعة في ضبط الأعلام وتحقيق مؤلفاتها ومختلفها . وتبيين ما يقع اللبس فيه منها ، كتاب « المؤلف والمختلف » للحافظ عبد الغنى بن سعيد شيخ حفاظ الحديث النبوى بمصر في عصره « توفى سنة ٤٠٩ هـ » . وقد أعانته معرفته الواسعة بالأنساب على أن يضبط التراجم ضبطاً دقيقاً عول عليه أكثر علماء الحديث والإسناد والطبقات الذين جاءوا بعده .

وقد جعل عبد الغنى بن سعيد كتابه في أسماء نقلة الحديث ورواته كما صنع الآمدى من قبله في أسماء الشعراء .

والحق أن هذه الخطوة في ضبط أسماء المحدثين وتبيين مؤلفاتها ومختلفها كانت لا مفر منها بعد أن كثرت الرواة وتعددت الأسماء . ووقع فيها من مظنة الوهم واللبس والاشتباه ما لا يؤمن معه الزلل .

فكان كتاب ابن سعيد بعد كتاب « المختلف والمؤتلف » للدارقطنى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ امتداداً لطريقة علماء الحديث في ضبط أسماء المحدثين وتحقيقها لإزالة لما قد يتسرب إليها من اللبس والإيهام .

والحق أن العمل الذي قام به عبد الغنى بن سعيد كان مما لا يقدر عليه إلا رجل مثله عالم بالأنساب ، خبير بالطبقات ، واسع المعرفة بالرجال . ولعل بعض النماذج من كتابه تصور لنا قيمة الجهد الذى بذله . فهو يقول في هذه الأسماء المتشابهة في الرسم : عيشون وعيسون وعيسون : « أما عيشون فهو عبد الله ابن عيشون الحراني ، ومحمد بن عيشون . وأما عيسون فهو عبد الحميد بن أحمد

ابن عيسى ، هذا يعرف بعيسون ، ومحمد بن عيسون الأنماطى . وأما عيسون ، فهو محمد بن أحمد بن عيسون البغدادى »

ويقول في هذه الأسماء المتشابهة : عباس . وعياش ، وعياس ، وعناس : « فأما عباس فكثير . وأما عياش فجماعة ، منهم عياش بن أبي ربيعة . وأما عياس بالياء المثناة من تحت والسين المهملة ، فهو أبو العياس . يروى عن سعيد بن المسيب . وأما عناس بالنون والسين المهملة ، فهو عناس بن خليفة » . وقد دخل اللبس إلى الأعلام العربية من ناحية تشابه الحروف من جهة كالحاء والخاء . ومن ناحية نقط الحروف وإهمالها كالفاء بنقطة واحدة ، والقاف بنقطتين من جهة ثانية ، ومن ناحية الرسم الإملائى من جهة ثالثة . فإن سفيان كان يكتب من دون ألف هكذا : سفين . معاوية ، كان يكتب من دون ألف هكذا : معوية . وقد يقرؤها القارئ معوية ، فإذا ما أعجمت العين صارت مغوية . وكثيراً ما اشتبه على رجال الحديث اسم معاوية ومغوية . أما الأول فعروف ومنه الخليفة الأموى الأول ، وأما الثانى فهو بالغين المعجمة ، وكان اسمه قبل الإسلام عبد العزى أبو مغوية . فلما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ما اسمك ؟ قال : عبد العزى . قال : أبو من ؟ قال : أبو مغوية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ! وإكنك عبد الرحمن أبو راشد . وهكذا أحاله النبي عليه السلام من عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الرحمن . ونقله من الإغواء إلى سبيل الرشاد .

وبعد وفاة عبد الغنى بن سعيد ببضعة عقود من السنين جاء الخطيب البغدادى صاحب « تاريخ بغداد » الذى أشرنا إليه غير مرة فألف كتاباً أسماه : « تلخيص المتشابهة في الرسم ، وحماية ما أشكل منه عن نوارد التصحيف والوهم » وهو كتاب ضخم ذكر المالكي أنه في ستة عشر جزءاً ، وقال عنه ابن الصلاح إنه من أحسن كتبه . وهو مخطوط ذكر منه المستشرق بروكلمان ثلاث نسخ ، وأشار جورجى زيدان إلى أن منه نسخة في دار الكتب المصرية في ٧٠٠ صفحة

وفي آخرها نقص . وموضوع الكتاب في جملته لا يخرج عن كتاب ابن سعيد ، من حيث تمييز الأسماء التي تشابهت في رسمها ، واختلفت في تهجيتها ونطقها . وفي ذلك القرن بالذات - أي القرن الخامس - ظهر كتاب « الإكمال » في رفع الأرتياب . عن المؤلف واختلف في الأسماء والكنى والألقاب « لابن ماكولا المتوفى سنة ٤٨٦ هـ وكتاب « تقييد المهمل وتمييز المشكل » لأبي علي الجياني الأندلسي المتوفى سنة ٤٩٨ هـ وكان من أئمة الحديث في الأندلس . وعنوانا الكتابين يدلان دلالة واضحة على موضوعيهما ، فهما لا يخرجان عما نحن فيه من تبين الفروق بين الصور المختلفة لرسم الأسماء ، وما قد ينجم عن ذلك من اختلاف نطقها .

وهناك قامت مشكلة أخرى في الأسماء المترجم لها . فقد يتفق اثنان أو أكثر في اسم واحد أو في كنية واحدة أو لقب واحد تمام الاتفاق ، فلا بد من التمييز بينها . وعدم الخلط فيها . والترجمة لهذا على أنه ذاك . حتى لا يقع الالتباس . فمن الناس من يخلط بين الحسن بن عبد الله العسكري « أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٥٩ هـ » صاحب كتابي « الصناعتين » و « ديوان المعاني » وغيرهما ، وبين الحسن بن عبد الله العسكري « أبو أحمد العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ هـ وأستاذ أبي هلال » . ولقد جمعت بين الاثنين مشابهة الاسم واسم الأب والنسب والمعاصرة . ولكن لابد من التمييز بالكنية . فصاحب « الصناعتين » هو أبو هلال . والثاني هو أستاذه « أبو أحمد » صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » . وفي المثل السابق رأينا الشخصين يتفقان في الاسم والنسبة ويختلفان في الكنية . وفي هذا المثل الذي نسوقه نرى الشخصين يتفقان في اسميهما واسم أبيهما ولكنهما يختلفان في النسبة . وهنا يجب الاحتراس أيضاً حتى لا يضاف إلى واحد منهما ما ليس لصاحبه . فهناك أحمد بن نصر المحدث الهمداني المتوفى سنة ٣١٧ هـ ، وهناك أحمد بن نصر المحدث الداودي المتوفى سنة ٤٠٢ هـ .

وقد يحدث الاتفاق في النسبة كثيراً من اللبس عند من لا يتحررون الدقة

والتحقيق ، فيقع الخلط في التراجم ، كما في نسبة « الحصري القيرواني » . فعندنا في الأدب العربي رجلاً اشتهراً بهذه النسبة ، ولكن يجب الحذر في التفريق بينهما ، فأبو الحسن الحصري كان أديباً فقيهاً عالماً بالقراءات وتوفى سنة ٤٨٨ هـ وهو صاحب قصيدة :

يا ليلُ الصب متى غده أقيام الساعة موعده ؟
رقدَ السمار وأرقه أسف للبين يردده

التي عارضها كثير من الشعراء القدامى واخداث . ومنهم الشاعر أحمد شوقي . أما أبو إسحاق الحصري القيرواني فهو صاحب كتاب « زهر الآداب » المشهور . وقد كان معاصراً لأبي الحسن الحصري وتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

ومن هذه المشكلة قامت حاجة المؤرخين وكتاب التراجم إلى تأليف كتب في الأسماء المتشابهة ، والألقاب المتشابهة . والكنى المتشابهة . للتفريق بينها والتعريف بكل واحد منها تعريفاً يطول أو يقصر كما يقتضيه المقام . ولعل كتاب « المؤلف واختلف » للآمدي الذي أشرنا إليه قبلاً كان من الخطوات الأولى في هذا السبيل . فهو لا يصحح الأسماء التي قد يطرأ عايتها التصحيف والتحريف فحسب . مثل البعيث ، والنبيت . ومثل الشاعر بجير والشاعر بجير . ومثل الشاعر بشر والشاعر بسر . ولكنه يترجم لنا الأسماء المتشابهة في غير تصحيف مثل أبو الغول الطهوي . وأبو الغول النهشلي . ومثل بشامة ابن الغدير . وحسان بن الغدير . ومثل الشاعر كثير صاحب عزة . والشاعر كثير صاحب ليلي الذي يقول فيها :

تصدت لنا ليلي ضراراً تعمدنا لزداد شوقاً بعد طول ضمان
فهاضت فؤادا كان يرجي اندماله على عنت قد كان منذ زمان

ولقد جرى المؤرخ شمس الدين الذهبي « ٧٤٨ هـ » في هذا المضمار . فألف كتاب « المشتبه في الأسماء والأنساب » . وقد ترجم فيه الكثير من الرجال والنساء الذين تشابهت أسماءهم أو أنسابهم أو كنانهم . ولما كانت أغلب أسماء الأعلام في التاريخ الإسلامي منسوبة إلى البلدان

أو القبائل أو الحرف والمهن كالصناعة والزراعة والتجارة . فقد قام بعض كتّاب التراجم المسلمين برد هذه الأنساب إلى أصولها . وأول من تنبه إلى ذلك عبد الكريم السمعاني المؤرخ المحدث المتوفى سنة ٥٦٢ هـ فألف كتابه « الأنساب » وقد رتب الأسماء فيه ترتيباً معجمياً على الألقاب والأنساب كالآمدى . والإصطخرى . والأوزاعى ، والباقلانى ، والبطلوسى ، والتوحيدى ، والجرمى ، والحليمى والحמידى ، والحوارزى ، والحولانى وهكذا ، فإذا اشترك في اللقب اثنان أو أكثر ذكرهم جميعاً وفرق بينهم وترجم لكل منهم مع ذكر تواريخ الميلاد والوفاة . وقد زاد عدد التراجم في هذا الكتاب على أربعة آلاف ترجمة ، وفيهم كثير من رواة الحديث . وقد طبع هذا الكتاب في مجموعة « جب التذكارية » بطريقة الفوتوتيب لا بطريقة الحروف . مما لا يجعل الانتفاع به يسيراً ، ولا الحصول عليه ممكناً . على الرغم من شدة الحاجة إليه . وعدم غنى المؤرخين والأدباء والباحثين عنه . وقد هذب المؤرخ عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ هذا الكتاب الثمين وأسماه : « اللباب ، في تهذيب الأنساب » ^(١) ، وهو معجم مسعف لمن يريد البحث عن أعلام المسلمين حتى القرن السادس ، وقد أشار في مقدمته إلى ما صنعه في التهذيب ، وأشاد بفضل السمعاني لتحمله « العبء الثقيل فيه . وجمع الأشتات المتفرقة إليه ، والتعب في جمعه وتصنيفه » ، ولم ينس أن يشير إلى تعبهِ هو أيضاً في تهذيبه « فلي فيه أيضاً تعب الاختيار . وجودة الترتيب . والبحث عن الحق ليعلم » .

ولن يفوتنا هنا — ونحن في سبيل الحديث عن ضبط أعلام التراجم — أن نشير إلى الجهد الذى بذله المؤرخ ابن خلكان في كتاب « وفيات الأعيان » في تقييد الأسماء وضبطها بالحركات والحروف وضبط الحروف المتشابهة كالسين والشين ، والعين والغين وهلم جرا . فقد سد بذلك العمل سبيلاً إلى دخول الوهم

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً ، وتم طبعه كاملاً بعناية السيد حسام الدين القدسي .

والتصحيح على الأعلام الإسلامية التى ترجمها في كتابه ، ولم يكتف بذلك الضبط في أعلام الرجال ، بل صنعه في أسماء البلاد والأماكن . فيقول مثلاً في ترجمة أبى سفيان البستى الأديب الفقيه المحدث : « والبستى بضم الباء الموحدة . وسكون السين المهملة ، وبعدها تاء مثناة من فوقها . هذه التسمية نسبة إلى بست ، وهى مدينة من بلاد كابل بين هراة وغزنة ، كثيرة الأشجار والأنهار » . وقد صنع هذا في الأعيان الثمانمائة فأكثر التى ترجم لها تراجم دقيقة ، في كتابه الذى كان موضع التقدير عند العرب والمستشرقين والمستعربين على حد سواء .

تلخيص كتب التراجم وتذييلها

كثيراً ما نصادف في ميدان التراجم الإسلامية كتباً كثيرة تلخص كتباً سابقة أو تهذبها أو تذيّل عليها امتداداً لعصر . أو استكمالاً لزمان ، أو استدراكاً لقوات . ولو أخذنا نعد هذه الملخصات والتهذيبات والتذييلات لطال بنا مجال القول إلى ذكر قائمة طويلة من أسماء الكتب والمؤلفين مما قد يكون هذا الكتاب الوجيز غير موضعه . إلا أننا لن نجد بدءاً من الإشارة إلى بعض الكتب في كل نوع على سبيل التمثيل لها والاستشهاد بها .

فنرى كتاباً مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان يختصره جماعة من الرجال منهم ابنه موسى ، وابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ . ونرى كتاب ابن عساكر في تاريخ دمشق وتراجم أعيانها يختصره ابن منظور الأفریقی صاحب « لسان العرب » المتوفى سنة ٧١١ هـ ، ونرى الإمام الذهبي المؤرخ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ يختصر كتاب « إنباه الرواة » ، على أنباه النحاة « للقطبي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، ونرى كتاب « رفع الإصر ، عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ يختصره جمال الدين بن شاهين في كتاب اسمه « النجوم الزاهرة » ، بتلخيص أخبار قضاة مصر والقاهرة « وهو مخطوط في برلين ، ومفهوم بالطبع أنه غير كتاب « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ .

وقد يتولى المؤلف نفسه تلخيص كتابه ، كما صنع ابن تغرى بردى . فقد قام هو نفسه بتلخيص كتابه : « النجوم الزاهرة » . وأسماء « الكواكب الباهرة » ، من النجوم الزاهرة « ولا يعرف مكان وجود هذا المخطوط ؛ وكما صنع ابن تغرى بردى أيضاً فى كتابه الواسع فى التراجم الموسوم باسم « المنهل الصافى » والمستوفى بعد الوافى « فقد اختصره فى كتاب سماه : « الدليل الشافى » على المنهل الصافى » . وكما صنع برهان الدين البقاعى المؤرخ المتوفى سنة ٨٨٥ هـ فى كتابه : « عنوان الزمان » ، فى تراجم الشيوخ والأقران « الذى جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته وتلاميذه ومعاصريه من العلماء ، فقد اختصره هو بنفسه فى كتاب أسماه « عنوان العنوان » . وقد يكون الدافع إلى تلخيص كتب التراجم والسير جعلها أيسر فى التداول وأقرب إلى التداول ، فإن كثيراً من الناس يفرون من المطولات إلى المختصرات . ويلجأون من المبسوطات إلى الملخصات . وقد يكون هنا من الدوافع — غير الاختصار — التهذيب أو حذف الأسانيد ، أو حذف ما لا حاجة إلى ذكره من أحوال الأشخاص ، كما صنع المؤرخ الكبير عز الدين بن الأثير « ٦٣٠ هـ » حين هذب كتاب « الأنساب » للسمعاني وسماه « اللباب » فى تهذيب الأنساب . ومن كتب التراجم والأدب التى هذبت بحذف الإسناد منها كتاب « الأغاني » لأبى الفرج الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ، فقد هذبه ابن واصل وجرده من الأسانيد والعنونات الكثيرة ، وهو من رجال القرن السابع الهجرى . وهذبه ابن مكرم أو ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ فى كتابه (مختار الأغاني) . وأخيراً هذبه المرحوم الشيخ محمد الحضرى من أهل زماننا ، وحذف أسانيده وعنناته الكثيرة ، وأبقى فيه أخبار الشعراء المترجمين وأشعارهم بغير إسناد .

والحق أن مسألة ذكر السند إذا كانت واجبة فى كتب الحديث والمحدثين ، وإذا كان بعض المؤرخين كالإمام الطبرى المؤرخ المحدث المفسر « توفى سنة ٣١٠ هـ » قد استعملها فى تاريخه الكبير جرياً على طريقة أهل الحديث الذين كان هو واحداً منهم ، فإنها فى كتب الأدب لا داعى لها ، وهى فى تراجم الأدباء والشعراء وطبقاتهم لا تدعو إليها ضرورة مقتضية ، ولا حاجة ملحة . وأين الحاجة الملحة فى أن يذكر هذا الإسناد فى مثل الخبر الأدبى التالى فى ترجمة

الأعشى الشاعر الجاهلى : « أخبرنى الحسن بن على ، قال : حدثنا ابن مهوريه ، عن ابن أبى سعد ، قال : ذكر الهيثم بن عدى ، أن حماداً الراوية سئل عن أشعر العرب . قال : الذى يقول :

نازعتهم قصب الرياحان متكئاً وقهوة مزة راووقها خضل « ؟؟ »

وهل يحتاج مثل هذا الحكم الأدبى الموجز السريع إلى مثل هذه السلسلة من السند فى الرواية ؟

وأين الضرورة المقتضية فى أن يذكر الإسناد الآتى ، فى مثل الخبر الأدبى التالى . فى ترجمة الشاعر عبيد الله بن عبد الله بن مسعود : « أخبرنى محمد بن خلف وكيع . قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : حدثنا أبى . قال : حدثنا يونس بن محمد ، قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن معمر ، عن الزهرى . قال : كان عبيد الله بن عبد الله يلطف لابن عباس ، فكان يعزه عزاً ؟ ؟ »

ألا تزيد ألفاظ الإسناد هنا وهناك على ألفاظ الخبر نفسه ؟

وَهَبْ قدرَ عبارة الإسناد لا يزيد على الخبر نفسه بل يقل عنه ، أفلا يكون طول سلسلة السند داعياً إلى الملل ، كما فى رواية أبى الفرج الأصبهاني لوفود الشعراء : كثير والأحوص ونصيب على الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ؟ وهل الاستشهاد هنا يكون أدل على القضية ، فاسمع إسناد هذا الخبر كما رواه مؤلف « الأغاني » قال : « أخبرنى محمد بن خلف وكيع . قال : أخبرنى عبد الله بن دينار مولى بنى نصر بن معاوية ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن التيمي ، قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن سهيل ، عن حماد الراوية ، وأخبرنى محمد بن حسين الكندى خطيب القادسية ، قال : حدثنا الرياشى ، قال : حدثنا شيبان بن مالك ، قال : حدثنا عبد الله بن إسماعيل الجحدري ، عن حماد الراوية » . فنحن هنا أمام سند لحادثة واحدة بروايتين عن طريقين . ولكن السند قد طال ، بما قد لا يؤمن معه الملل .

المعاصرة وأثرها في كتابة التراجم

قد تكون المعاصرة من أسباب الحكم الصحيح على المترجم لهم . لأن وجود كاتب السيرة أو الترجمة في عصر الذي يريد أن يترجم له يكون أدعى إلى الإحاطة بكثير من نواحيه ، والإلمام بكثير من أطراف سيرته . مما لا يتيح البعد في الزمن والتطاول في المدى . وإن كان البعد عن عصر المترجم له يتيح للكاتب المؤرخ أن يراه واضحاً غير مشوب بضباب المعاصرة الذي قد يغير معالم الصورة . مثل ذلك كالصورة الزيتية ، تراها على البعد أحسن مما تراها وأنت دان منها ، أو محقق إليها . أو مدقق النظر فيها .

والحق أن المعاصرة في التراجم قد تعين على جمع مواد الترجمة أكثر مما يستطيع الزمن المتطاول أن يفعله . فإن سيرة للبطل المسلم صلاح الدين الأيوبي يستطيع معاصر له كابن شداد « توفي سنة ٦٣٢هـ » أن يكتبها أصدق وأقرب إلى الحق مما لو كتبها مؤرخ بعد عصره . ولكن ألا يخشى أن تكون المعاصرة والقرب من المترجم له سبباً إلى المجاملة على حساب الحق . والمحاباة على حساب التاريخ ؟ ولا شك أن السيرة التي كتبها الوزير أسان الدين بن الخطيب للسلطان محمد ملك غرناطة هي قطعة من أدب التراجم رائعة ، ولكن ذلك لا ينسينا الحقيقة الواقعة وهي أن ابن الخطيب الوزير كان يترجم لملك وسلطان أندلسي كان هو وزيره . ونحن لا نتهم ابن الخطيب بالمحاباة أو مجافاة الحق أو الهوى ، ولكن يستحيل أن نصدق أنه كان يبيع لنفسه أن يكشف له ضعفاً ، أو ينشر له غيباً . ونحضرنا مثال ناطق على مجاملة المؤرخين لرجال عصرهم رغباً أو رهماً . فالمؤرخ الكبير أبو الحسن المسعودي « ٣٤٦ هـ » صاحب « مروج الذهب » كان معاصراً للخليفة العباسي « القاهر » الذي بوبع بالخلافة سنة ٣٢٠ هـ ، ولكنه كان حريصاً كل الحرص . بل كان مخفياً لواقع التاريخ حين ذكر عن الخليفة القاهر أنه « كان شهماً ، شديد البطش بأعدائه . وأباد جماعة من أهل

الدولة ، منهم مؤنس الخادم ، وبلق ، وعلى بن بليق . فهابه الناس » وسكت المؤرخ سكوتاً تاماً مطبقاً عما فعله الخليفة بأمر أخيه لأبيه وسلفه الخليفة المقتدر . نعم ! سكت المسعودي إرضاء للقاهر أو خوفاً منه . ولم نستطع أن نعرف تعذيب القاهر لزوج أبيه وأمر أخيه إلا بعد أن تطاول الزمن ، وأمن المؤرخون الصولة أو البطش . فجاء مؤرخ كابن كثير في القرن الثامن « توفي سنة ٧٧٤ هـ » ، فوصف لنا ذلك الحادث الوحشي الفظيع ، ونحن ندعه هنا يتكلم بعبارته : « واستدعى بأمر المقتدر . وهي مريضة بالاستسقاء . وقد تزايد بها الوجع من شدة جزعها على ولدها — يعني المقتدر — حين بلغها قتلها . وكيف بقي مكشوف العورة ، فبقيت أياماً لا تأكل شيئاً ، ثم وعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح ، ومع هذا كله استدعى بها القاهر ، فقررها على أموالها ، فذكرت له ما يكون للنساء من الحلى والمصاغ والثياب ، ولم تقر بشيء من الأموال والجواهر ، وقالت له : لو كان عندي من هذا شيء ما سلمت ولدي ، فأمر بضربها ، وعلقت برجلها ، ومسها بعذاب شديد من العقوبة ، فأشهدت على نفسها ببيع أملاكها ، فأخذته الجند مما يحاسبون به من أرزاقهم ، وأرادها على بيع أوقافها ، فامتنعت من ذلك وأبت أشد الإباء » .

ومن سوءات المعاصرة في كتابة التراجم والسير أن كاتب الترجمة قد تحمله المجاملة إلى سياسة التبرير والتسويق واو بالباطل ، فهو يلتمس الأعذار الواهية لأخطاء من يترجم لهم ، أو يكتب سيرهم ، وقد لا يكون لهذه الأعذار نصيب من حق . أو حظ من صحة . فالمؤرخ سبط ابن الجوزي ^(١) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ يتلمس المعاذير لمظفر الدين بن زين الدين من أمراء إربل في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وقد كان مظفر الدين هذا كثير المصادرة والقتل لرجال ديوانه وكتابه . ويبرر مؤرخنا سبط ابن الجوزي هذا بقوله : « ولعله اطلع منهم على

(١) ليس هو عبد الرحمن بن الجوزي المؤرخ صاحب « المنتظم » و « صفة الصفوة » والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ وإنما هو ابن بنته ، واسمه يوسف بن قزويني ، واشتهر بكتابه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » الذي طبع لأول مرة في العالم بألمانيا سنة ١٩٥١ .

خيانات فرأى أخذ الأموال وإنفاقها في أبواب البر والقربات أول .
وعلى الضد من ذلك قد تكون المعاصرة سبباً في التشنيع والتشهير . وذلك
حينما تؤمن السطوة . وتتقن الصولة من الملوك والأمراء ، ويقع التنافس بين النظراء
والأقران . كما وقع بين السخاوى المؤرخ والسيوطى المؤرخ المعاصر له ، وقد أشرنا
إلى ذلك قبلاً . وكما وقع بين السخاوى وبين البقاعى من أقرانه ومؤرخى عصره .
فهو يغمزه حين يترجم له في الجزء الأول من « الضوء اللامع » ويقول عنه في أول
الترجمة : « ودخل بيت المقدس ثم القاهرة للاستفتاء على أهلها ، وهو في غاية
من البؤس والقلة والعري . . . » ويقول عنه بعد ذلك : « ووقائعه كثيرة . وأحواله
شبهة . ودعاويه مستفيضة ، أهلكه التيه والعجب ، وحب الشرف ^(١) والسمعة .
بحيث زعم أنه قيم العصرين بكتاب الله وسنة رسوله . . . » ويمضى فيقول عنه :
« مع رميه للناس بالقذف والفسق والكذب والجهل ، وذكر ألفاظ لا تصدر من
عاقل ، وأمور متناقضة ، وأفعال سيئة ، وحقد تام » .

وهل ننسى ونحن نؤرخ للتراجم والسير في الأدب العربى ما صنعتها المعاصرة
والمنافسة بين أبى حيان التوحيدى والصاحب بن عباد من رجال القرن الرابع
الهجرى ؟ لقد قدم أبو حيان على الصاحب بالرى وصحبه ، فلم يحمد صحبته ،
ولم يحمد صحبة أبى الفضل بن العميد الأديب الوزير المشهور . ومن هنا كانت
أقوال أبى حيان وأخباره عن الصاحب بن عباد موضع الأخذ بالحذر الشديد .
واللوحة التى رسم بها أبو حيان هذا الوزير الأديب الخطير تبعث على الحيرة
حينما نجد لوحة أخرى مغايرة كل المغايرة بريشة كاتب آخر معاصر للصاحب .
وهو الثعالبى صاحب « يتيمة الدهر » ؛ فأبو حيان يقول فى تصويره للصاحب
ابن عباد : « . . . والناس كلهم يحجمون عنه لجراسته وسلاطته . واقتداره وبطشه .
شديد العقاب ، طفيف الثواب ، طويل العتاب ، بذىء اللسان . يعطى كثيراً

(١) الشرف هنا : معناه الجاه .

قليلاً . مغلوب بحرارة الرأس . سريع الغضب . بعيد الفينة . قريب الطيرة .
حسود حقود . وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية .
أما الكتاب والمنصرفون فيخافون سطوته . وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد
قتل خلقاً . وأهلك ناساً . ونفى أمة . نخوة وبغياً . وتجبراً وزهواً . ومع هذا
يخدعه الصبى . ويخبله الغبى » .

والثعالبى يقول فى تصويره له : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح
عن علو محنه فى العلم والأدب . وجلالة شأنه فى الجود والكرم . وتفردة بغايات
الحاسن . وجمعه أشتات المفاخر . لأن همه قوى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله
ومعاليه . وجهد وصنى يقصر عن أيسر فواضله ومساغيه . ولكنى أقول : هو
صدر المشرق . وتاريخ المجد ، وغرة الزمان . وينبوع العدل والإحسان . ومن
لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق . ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق .
وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء . وحضرته محط رحالهم . وموسم
فضلائهم . ومرتع آمالهم . وأمواله مصروفة إليهم . وصنائعه مقصورة عليهم ؛
وهتمته فى مجد يشيده . وإنعام يجده . وفاضل يصطنعه . وكلام حسن يصنعه
أو يسعه . . . »

إن كاتب التراجم لا بد أن يكون على حذر شديد حينما يقف أمام هاتين
الصورتين المتناقضتين لشخص واحد ؛ بريشة كاتبين لا يعلم إلا الله ماذا كانت
دوافعهما وبواعثهما ونفسيتهما وهما يكتبان . كتابة ستبقى من بعدهما على
الزمان . . . !

الفصل الأول: التراجم ونشأتها

٩	التراجم في القديم والحديث
١٤	التراجم بين العلم والفن
١٨	نشأة التراجم في الأدب العربي والداعى إليها
٢٣	التراجم الذاتية

الفصل الثانى : السير

٢٨	السيرة النبوية
٣٧	السيرة الشعرية

الفصل الثالث : أنواع كتب التراجم

٤٠	التراجم العامة الجامعة
٤٧	التراجم حسب العصور
٤٩	التراجم لسنة سنة
٥٠	التراجم فى كتب التاريخ العام
٥٢	التراجم فى كتب الخطط والآثار
٥٥	كتب الطبقات فى التراجم
٥٥	طبقات الصحابة
٥٦	طبقات الفقهاء

٥٨	طبقات المفسرين والقراء
٦٠	طبقات المحدثين والحفاظ
٦٢	طبقات النحاة
٦٤	طبقات الشعراء
٦٧	طبقات الصوفية
٦٩	طبقات القضاة
٧٠	طبقات الأطباء
٧١	طبقات الفلاسفة والحكماء
٧٣	تواريخ البلدان وتراجم رجالها

الفصل الرابع : حول كتابة التراجم

٧٩	تراجم النساء
٨٢	التراجم بين الطول والإيجاز
٨٣	التراجم بين الإنصاف والتحامل
٨٦	التحقيق فى كتب التراجم
٨٨	العناية بتواريخ الميلاد والوفاة
٩٠	مصادر التراجم
٩٣	ترتيب الأعلام المترجمة
٩٦	ضبط الأعلام وتحقيق الأنساب
١٠٣	تلخيص كتب التراجم وتذييلها
١٠٦	المعاصرة وأثرها فى كتابة التراجم
١١٠	فهرس الكتاب

رقم الإيداع	١٩٨٠/٤٣٤٢
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٣٤-٨٥-٠

١/٨٠/١١٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)